السيرة النبوية

في ضوء القراءات القرآنية المتواترة

دراسة تحليلية موضوعية استنباطية

إعداد الدكتور

عماد محمود محمود عبد الكريم

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد

كلية البنات الأزهرية بالعاشر من رمضان

السيرة النبوية، في ضوء القراءات القرآنية المتواترة
دراسة تحليلية، موضوعية، استنباطية

عماد محمود محمود عبد الكريم .
قسم التفسير، وعلوم القرآن الكريم، كلية البنات الأزهرية، بالعاشر من رمضان ، جامعة الأزهر الشريف ، مصر.
البريد الإلكتروني: ekarim1972@gmail.com

الملخص: هذا البحث تلاقت على صفحاته، السيرة النبوية الشريفة بتفسير القرآن الكريم، وكان هذا التلاقي من جهة مميزة هي: (علم توجيه القرآءات القرآنية)؛ فتآخى فيه ثلاثة من العلوم الشريفة (التفسير، والسيرة، والقراءات)، والثبوت القطعي للقراءات المتواترة؛ يُعطى لفقه السيرة المقتبس منها حجية قوية، وتوجيه القراءات، والاحتجاج لها، ضرب خاص، ودقيق من ضروب التفسير؛ فهذا بحث ينتمي إلى الدراسات (البَيْنِية) التي تهتم بالقضايا المشتركة بين علمين، أو أكثر؛ تتلاقح فيها الأفكار؛ فتُثمر ألواناً من المعاني، ذات وقع مؤثر على العقل، والوجدان، إذ جرى تثويرها بطريقةٍ جديدةٍ، والهدف من البحث هو جمع، وتوجيه القرآءات المتواترة المتعلقة بالسيرة النبوية الشريفة، واتبع البحث المنهج التكاملي، وتكوّن من مقدمة، ومقصد، وخاتمة، واشتمل المقصد على خمسة عشر مبحثًا، هي: معنى النبوة، ومنزلتها. ختم النبوة بالنبي محمد ﷺ. حفظ القرآن الكريم. عصمة النبي ﷺ في تبليغ الوحي. عصمة النبي ﷺ من اتخاذ المضلين أعواناً، وعدالة صحابته الكرام ﷺ. ناشئةُ الليلِ، وأثرها في تثبيت فؤاد النبي ﷺ، وجوبُ توقيرِ النبي ﷺ من المؤمنين. استغاثةُ النبي ﷺ، وتوجعه من عدم إيمان قومه، عجبُ النبي ﷺ مِنْ عدمِ إيمانِ قومه. ثباتُ النبي ﷺ العظيم أمام أعاصير المكر، حدود مسؤولية الرسول ﷺ عن إيمان الناس، وأعمالهم. لماذا لم يُؤمن الكفار بدعوة الرسول ﷺ؛

مع كمالها، وحسن بلاغها!، حمالةُ الحطب، بين ذم الدنيا، وعذاب الآخرة، عصمة النبي ﷺ من الغلول، قتال الصحابة ﷺ مع النبي ﷺ، وأسفرت نتائج البحث أن للقراءات القرآنية المتواترة دور هام، في الكشف عن جوانب متعددة، من السيرة النبوية المطهرة، والحمد لله أولًا وآخر

الكلمات المفتاحية: القراءات المتواترة، توجيه القراءات، السيرة، النبي في القرآن.

Sirah in the Light of the Quranic Non-Intermittent Modes of Recitation
An Analytical, Thematic Deductive study

Emad Mahmoud Mahmoud Abdel- Kareem

Assistant Professor of Qur'anic exegesis and the Sciences of the Quran, Al-Azhar University Al-Azhar Faculty for women 10th of Ramadan Branch

EMAIL : ekarim1972@gmail.com

ABSTRACT

This research is concerned with both Sirah and how it is interpreted through the exegesis of the Glorious Quran, it includes three of the honorable sciences (Quranic exegesis, Sirah, and Quranic modes of recitation). It is clear that the definitive proof of non-intermittent modes of recitation give Sirah and its quotes a strong authority especially explaining the Quranic modes of recitation, and proving them, which is considered as a special and precise form of interpretation. This research belongs to the multidisciplinary studies that are concerned with the common issues between two or more sciences; in which ideas are cross-fertilized producing new colours of meanings, with an impact on the mind, and conscience. These sciences were revolutionized in a new way. The goal of this research is collecting and explaining non-intermittent modes of recitations related to the Sirah (honorable prophetic biography), and it followed an integrative approach**,** and consisted of an introduction, body of the study, and a conclusion. The results of the research revealed that non-intermittent Quranic modes of recitation play an important role in revealing various aspects of the pure Sirah. Finally, praise be to Allah first and last.

Keywords: Non-intermittent Modes of Recitation, Explanation of Modes of Recitation, Sirah (biography of Prophet) in the Quran.

مقدمة

الحمدُ للهِ ربِ العالمينَ؛ أنعمَ علينا برسولٍ يتلو صحفاً مُطهرة، فيها كُتب قيمة، شرحَ اللهُ لهُ صدرَهُ، ورفعَ في العالمينَ ذِكْرَهُ، فكانَ بعينِ اللهِ محفوظاً، وبعنايتهِ معصوماً، اللهمَّ صل على محمدٍ، وآلِ محمدٍ، كما صليتَ على إبراهيمَ، وآل إبراهيمَ، وبارك على محمدٍ، وعلى آل محمدٍ، كما باركتَ على إبراهيم، وآل إبراهيم في العالمينَ، إنك حميدٌ مجيدٌ.

أمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ القرآنَ الكريمَ هو المصدرُ الأولُ، قَطْعِيُ الثبوت، لسيرة النبي الخاتم ﷺ ؛ فالبحث فيه عن مَعَالِمها، واستنشاق عبيرها، واستنباط فقهها؛ هو غايةٌ تجمعُ الفضلَ مِنْ أَطْرَافهِ؛ فَفيه جمعٌ بين عِلْمَي: (التفسير، والسيرة)، بين: (معاني القرآن، وسيرة من أُوحي إليه القرآن)، وكلاهما يَحُوزُ مِنَ الشَّرَفِ ما اللهُ به عليمٌ!!؛ فكيفَ إذا اجتمعا في بوتقة واحدة؛ تُخْرِجُ لنا، رحيقها المختوم، وعسلها المصفى !!.

الدراساتُ السابقة: لم أقف على دراسةٍ تعرضت لهذا الموضوع، بمثل هذا العنوان، الذي يجمع بين السيرة النبوية، وبين توجيه القراءات المتواترة، الواردة في مسائلها.

التعريف بمصطلحات العنوان:

السيرة: لغة: الطريقة في الشيء، والهيئة، وأحاديث الأولين[1]، واصطلاحًا: هي طريقة النبيﷺ وهيئته، وأفعاله، وأفعال أصحابه التي أقرها ﷺ.

منزلة علم السيرة: السيرة تُمثل الجانب العملي من السنة النبوية؛ فهي عبارة عن الأفعال، والتقريرات النبوية، يقول الإمام ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ) : "هذا الفن

(١) جمال الدين ابن منظور الأنصاري(ت: ٧١١هـ).لسان العرب، دار صادر. بيروت. ط، الثالثة ١٤١٤ هـ، (٤ / ٣٩٠)، مادة (سير).

مما ينبغي الاعتناء به، والاعتبار بأمره، والتهيؤ له" ثم استشهد بقول على بن الحسين ﷺ (ت:٩٤ هـ): "كُنَّا نُعَلَّمُ مَغَازِيَ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا نُعَلَّمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ."(١).

القراءات: علم بِكيفِيّةِ أَدَاءِ كَلِمَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَاخْتِلافِهَا، مَعْزُوًّا لِنَاقِلِهِ (٢).

المتواترة: "كل قراءة: وافقت العربية مطلقًا، ووافقت أحد المصاحف العثمانية، ولو تقديرًا، وتواتر نقلها، هذه القراءة المتواترة المقطوع بها. ونعني بالتواتر: ما رواه جماعة إلى منتهاه، يُفيد العلم من غير تعيين عدد؛ هذا هو الصحيح، وقيل بالتعيين، واختلفوا فيه (٣). والذي جَمَعَ في زماننا هذه الأركان الثلاثة، هو قراءة الأئمة العشرة، التي أجمع الناس على تلقيها بالقبول."(٤).

والقراء العشرة هم الأئمة: (ابن عامر ت: ١١٨هـ)، (ابن كثير ت: ١٢٠ هـ)، (عاصم ت: ١٢٧هـ)، (أبو عمرو ت: ١٥٤هـ)، (حمزة ت: ١٥٦هـ)، (نافع ت: ١٦٩هـ)، (الكسائي ت: ١٨٩هـ) (أبو جعفر ت: ١٣٠هـ)، (يعقوب ت: ٢٠٥هـ)، (خلف ت: ٢٢٩هـ)(٥). رحمهم الله تعالى.

---

(١) أبو الفداء بن كثير الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ) السيرة النبوية، تح، مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٥ هـ -١٩٧٦ م. (٣٥٥/٢). وعلي بن الحسين هو: علي بن الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب السيد، الإمام، زين العابدين الهاشمي، العلوي، المدني. توفي سنة أربع، وتسعين، انظر ترجمته في شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٨٦) تح: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط تقديم: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، طبعة، ثالثة، ١٤٠٥ هـ ،١٩٨٥ م.

(٢) أحمد بن محمد الدمياطيّ، الشهير بالبناء (ت: ١١١٧هـ)، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، تح: أنس مهرة، دار الكتب العلمية، لبنان. (ص ٦).

(٣) قيل ستة، وقيل اثنا عشر، وقيل: عشرون، وقيل: أربعون، وقيل: سبعون، انظر السابق.

(٤) شمس الدين بن الجزري (ت: ٨٣٣هـ) منجد المقرئين، ومرشد الطالبين باختصار، ط: دار الكتب العلمية: ط، أولى ١٤٢٠هـ -١٩٩٩م. (ص١٩).

(٥) شمس الدين الذهبي (ت: ٧٤٨ هـ)، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، مؤسسة الرسالة، بيروت ط، أولى، ١٤٠٤.تح: بشار عواد معروف، شعيب الأرناؤوط، صالح مهدي عباس.

دراسة: أصل الدراسة الرياضة، والتعهد للشيء، ثم قيل: درستُ القرآن؛ إذا قرأته، وتعهدته لتحفظه.(١) والمقصود بالدراسة هنا: تعهد موضوع البحث، بمنهج علمي خاصٍ للوصول إلى نتائج؛ فهذا بحث يهدف إلى جمع القراءات القرآنية، المتواترة المؤثرة في التفسير، الخاصة بالسيرة النبوية، وتوجيهها، وترتيبها، ترتيباً موضوعياً.

تحليلية: التحليل يُطلق، ويُراد به: ضد التحريم، ويُطلق على التحليل من اليمين، ويُطلق، ويُراد به ردُّ الشيءِ إلى عناصره(٢).

التحليل في البحث العلمي: عمليةٌ بحثيةٌ؛ تهدفُ لتفسيرِ الظاهرةِ المدروسةِ، بعد جمعِ المادةِ البحثيةِ؛ فتعمل على تجزئةِ الظاهرةِ محلِ البحثِ؛ لاستكشافِ نتائجَ، لا تظهر بالنظرةِ الإجماليةِ، وهي المقابلة للنظرة التحليلية(٣).

موضوعية: المنهج الموضوعي يتعلق بالكشف عن أهداف كلية في قضايا محددة؛ وهو يتبع الترتيب الموضوعي الذي يتناسب مع تحقيق أهداف البحث، من خلال تتبع القراءات المتحدثة عن هذا الموضوع في كل سور القرآن الكريم، وترتيبها وِفْقَ رؤية محددة في بحث تلك القضية، ومن خلال البحث، والمقارنة، والاستنباط، تُسْتخلص النتيجة، مع مراعاة ضوابط الاستنباط، وأصول التفسير، والمنهج الموضوعي في توجيه القراءات، لونٌ جديدٌ في تثويرِ (توجيه القراءات)؛ تتكشف به المعاني المشتركة، بين القراءات المتباعدة في أماكنها من سور القرآن الكريم، لكنها متآخية؛ من حيث الموضوع، متعاونة على تحقيق مقاصد القرآن الكريم.

---

(١) أبو سليمان الخطابي (ت: ٣٨٨ هـ)، غريب الحديث، تح: عبد الكريم الغرباوي. خرج أحاديثه: عبد القيوم عبد رب النبي، دار الفكر، دمشق: ١٤٠٢ هـ -١٩٨٢ م، (ج ١/ ص ٥٨٣).

(٢) أحمد مختار (ت: ١٤٢٤هـ)، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب. الأولى، ١٤٢٩ هـ -٢٠٠٨ م. (ص٥٥٠).

(٣) رجاء دويدري، البحث العلمي أساسياته النظرية وممارسته العملية. دار الفكر المعاصر، بيروت ط، أولى ١٤٢١-٢٠٠٠.

استنباطية: الاستنباط: في اللغة: استخراجُ الماءِ من العين؛ من قولهم نبطَ الماءُ، إذا خرج من منبعه. وفي الاصطلاح: "استخراجُ المعاني، من النصوص، بفرطِ[1] الذهن، وقوة القريحة"[2]؛ وعليه يُمكن تعريف (الدراسة الاستنباطية) بأنها: التي تسلك المنهج الاستنباطي؛ وهو: بذلُ الجُهد العقلي، والنفسي المكثف في دراسة النص؛ بهدف الوصول إلى استنباط نتائج في أصول التفسير، قائمة على أدلةٍ واضحةٍ، أوقرائنَ داعمةٍ. فالمنهج الاستنباطي هو: "الذي يربط العقل فيه بين المقدمات، والنتائج، أو بين الأشياء، وعللها، على أساس المنطق، والتأمل الذهني، فهو يبدأ بالكليات؛ ليصل منها إلى الجزئيات"[3].

سؤال البحث: هل للقراءات القرآنية المتواترة، أثرٌ في تبيانِ معالمِ سيرة النبي ﷺ ؟

طبيعة البحث وأهميته: هذا البحث ينتمي إلى الدراسات (البَيْنية) التي تهتم بالقضايا المشتركة بين علمين، أو أكثر؛ تتلاقح فيها الأفكار؛ ويجرى تثويرها بطريقة جديدة، فقد تلاقت على صفحاته، السيرة النبوية الشريفة، بتفسير القرآن الكريم، وكان هذا التلاقي من جهة خاصة مميزة؛ هي: (علمُ توجيهِ القرآءاتِ القرآنية)؛ فتآخى ثلاثة من العلوم الشريفة (التفسير، والسيرة، والقراءات) في عنوانه: (السيرة النبوية في ضوء القراءات القرآنية المتواترة. دراسة: تحليلية، موضوعية، استنباطية). وأدعو الله ﷻ أن يتحقق في هذه الدراسة، بعض ما جاء في هذه العبارة المنهجية الجامعة: " لا يُؤلف أحدٌ كتابًا إلا في أحد أقسامٍ سبعةٍ، ولا يُمكن التأليف في غيرها؛ وهي: إما أن يُؤلف من شيء لم يُسبق إليه يخترعه، أو

(١) الفرط والفارط: من معانيه "المتقدم في طلب الماء" أهـ، أحمد بن فارس القزويني الرازي (ت: ٣٩٥هـ)، مقاييس اللغة تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ ،١٩٧٩م، (٤/ ٤٩٠).

(٢) علي بن محمد الشريف الجرجاني (ت: ٨١٦هـ)، التعريفات، دار الكتب العلمية بيروت، ط، أولى ١٤٠٣هـ ،١٩٨٣م، (ص: ٢٢).

(٣) محمَّد زيان عمر، البحث العلمي مناهجه، وتقنياته، جدة بالسعودية، ١٣٩٤هـ. (ص ٣٢).

شيء ناقص يُتممه، أو شيءٍ مُسْتَغْلَقٍ يشرحهُ، أو طويلٍ يختصرهُ، دون أن يُخل بشيءٍ في معانيه، أو شيء مختلط يُرتبه، أو شيء أخطأ فيه مصنفه يُبينه، أو شيء مُفرقٍ يَجمعهُ "(١).

وعلم توجيه القراءات هو: "علم يبحث عن القراءات من جوانبها الصوتية، والصرفية، والنحوية، والبلاغية، والدلالية. وله أسماء: منها: الاحتجاج، حجج–أو حجة–القراءات، علل القراءات، علم القراءات دراية، فقه القراءات"(٢).

أثر توجيه القراءات القرآنية في إظهار ثروة من المعاني القرآنية:

"رغم أَنَّ التوجيهَ تفسيرٌ إلا أنه عملٌ متميزٌ... ولهذا صح أن نقول: إنه ذو أثر متميز في إبراز معانٍ قرآنية، لا يتيسر استشرافها في كتب التفسير، قال الشيخ طاهر الجزائري (ت: ١٣٣٨هـ): "واعلم أن المشتغلين بفن القراءات، وتوجيهها، يلوح لهم من خصائص اللغة العربية، ودلائل إعجاز الكتاب العزيز، ما لا يلوح لغيرهم، ويحصل لهم من البهجة، ما يعجز اللسان عن بيانه، فينبغي لمن سمت همته، أن يُقْدِمَ على ذلك، بعد أن يقف على الفنون التي يلزم أن يُوْقَفَ عليها مِنْ قَبْلُ، فالأمر يسيرٌ، على مَنْ جَدّ جِدُّه، والله ولى التوفيق"(٣).

ضوابط توجيه القراءات المتواترة: " التوجيه تفسير، يُبذل فيه جهدٌ زائدٌ؛ لتأمل القراءتين، والفرق بينهما، والتعرف على جلالة المعاني، وجزالتها، فإن القراءات من محاسن وجوه الإعجاز، وهي أجزاء من القرآن. وبما أن التوجيه عمل بشرى؛ فإن فيه الحسن، والأحسن، وفيه ما قاله قائله، فكان في قوله غير مُوَفَّقٍ، ومما حظره العلماء أن يقوم المتفحص للقراءتين بترجيح إحداهما على الأخرى ترجيحاً

(١) إحسان عباس (تحقيق)، رسائل ابن حزم الأندلسي، رسالة في فضل الأندلس، وذكر رجالها، المؤسسة العربية للدراسات والنشر. (ج ٢، ص١٨٦).

(٢)المجلس الأعلى للشئون المتخصصة، مجموعة من العلماء المتخصصين، (كتب مادة القراءات فيها أ. د/ عبد الغفور مصطفى -رحمه الله-). الموسوعة القرآنية، مصر: ١٤٢٣ هـ -٢٠٠٢ م. (١/ ٣٣٦).

(٣) المعتصم بالله طاهر بن صالح بن أحمد الجزائري، التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريق الإتقان، المنار ١٣٣٤ ه، (ص ١٢٠).

ينتقص من الأخرى؛ غافلاً عن أنها قرآن من القرآن. فهذا قد يتجه في بعض القراءات الشاذة[١]، أما المتواترة فلا"[٢]. قال سيبويه (ت: ١٨٠ه) : "القراءة لا تُخالَفُ؛ لأنّ القراءة السُّنَّةُ."[٣].

منهج البحث: المنهج العلمي هو:" الطريق المُؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم؛ بواسطة طائفةٍ من القواعد العامة، التي تُهيمن على سير العقل، وتُحدد عملياته؛ حتى يصل إلى نتيجةٍ معلومةٍ"[٤]. وهذه الدراسة سارت وفق المنهج التكاملي الجامع بين الجمع، والتحليل، والاستنباط.

خطة البحث: اقتضت طبيعة البحث؛ أن يكون بناؤه من مقدمة، ومقصد، وخاتمة، وفق التفصيل الآتي:

- **أولاً: مقدمة:** تتضمن الدراسات السابقة، والتعريف بمصطلحات العنوان، وموضوع البحث، وسؤاله، وطبيعته، وأهميته، ومنهجه، وخطته، وهي محل القراءة الآن.
- **ثانياً: مقصد البحث:** ويتكون من خمسة عشر مبحثًا، وهي:
- المبحث الأول: معنى النبوة، ومنزلتها.
- المبحث الثاني: ختم النبوة بالنبي محمد ﷺ.
- المبحث الثالث: حفظ القرآن الكريم.
- المبحث الرابع: عصمة النبي ﷺ في تبليغ الوحي.

---

(١) القراءة الشاذة: هي كل قراءة لم يتوفر فيها شرط واحد من شروط القراءة الصحيحة. أهـ. نور الدين عتر: مطبعة الصباح، دمشق، ط، أولى، ١٤١٤ هـ -١٩٩٣ م، (ص: ١٥٣).

(٢) المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، الموسوعة القرآنية المتخصصة. باختصار، مرجع سابق (١/ ٣٣٦).

(٣) عمرو بن عثمان الملقب سيبويه (ت: ١٨٠هـ) الكتاب تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة: ط، ثالثة، ١٤٠٨ هـ -١٩٨٨ م. (١/ ١٤٨).

((٤)) أحمد بدر، أصول البحث العلمي ومناهجه، وكالة المطبوعات الكويتية، ط ٧-١٩٨٤م، توزيع دار القلم بيروت، (ص ٢٥٠)، نقلاً عن (التفسير والمفسرون في ثوبه الجديد) للدكتور عبد الغفور مصطفى. دار السلام، ط أولى، ١٤٢٨هـ -٢٠٠٧م. (ص ٣٤٠).

- المبحث الخامس: عصمة النبي ﷺ من اتخاذ المضلين أعواناً، وعدالة صحابته ﷺ.
- المبحث السادس: ناشئةُ الليلِ، وأثرها في تثبيت فؤاد النبي ﷺ.
- المبحث السابع: وجوبُ توقيرِ النبي ﷺ من المؤمنين.
- المبحث الثامن: استغاثةُ النبي ﷺ، وتوجعه من عدم إيمان قومه.
- المبحث التاسع: عجبُ النبي ﷺ مِنْ عدمِ إيمانِ قومه.
- المبحث العاشر: ثباتُ النبي ﷺ العظيم أمام أعاصير المكر.
- المبحث الحادي عشر: حدود مسؤولية الرسول ﷺ عن إيمان الناس، وأعمالهم.
- المبحث الثاني عشر: لماذا لم يُؤمن الكفار بدعوة الرسول ﷺ؛ مع كمالها، وحسن بلاغها!
- المبحث الثالث عشر: حمالةُ الحطب، بين ذم الدنيا، وعذاب الآخرة.
- المبحث الرابع عشر: عصمة النبي ﷺ من الغلول.
- المبحث الخامس عشر: قتال الصحابة ﷺ مع النبي ﷺ.
- **ثالثًا: النتائج.**
- **رابعًا: المقترحات.**
- **خامسًا: المراجع.**
- **سادسًا: فهرس المحتويات.**

المبحثُ الأول

معنى النبوة، ومنزلتها.

تعريف النبوة: هي: "سِفَارَةٌ بين الله، وبين ذوي العقول من عباده؛ لإزاحة عِلَلِهم، في أمر مَعادِهم، ومَعاشِهم"(١). ولقبُ(٢) (النبيّ) مُصطلحٌ إلهيٌ شريفٌ، جرى التعبير بهِ في القرآن الكريم، عن ذلك الشخص البشري الذي اصفاه الله ﷻ للنبوة؛ ليتلقى الوحي الإلهي، إشعارًا بمدحه، ولفظ (النبيّ) يُقرأ مهموزاً، وغير مهموز، وكذلك جمعه (النبيين، والأنبياء)، ومصدره (النبوة). وتَحْملُ اللغة العربية في معاجمها، من الإشارات الدلالية لهذه الألفاظ؛ ما يشير إلى حكمة اختيارها للتعبير عن تلك المهمة الشريفة لهؤلاء المصطفين الأخيار، وتوضيح ذلك فيما يأتي:

القراءات: (النبيّ) وما جاء منه (النبيون، والنبيين، والأنبياء، والنبوة) حيث وقع، قرأ نافع بالهمز، والباقون بغير همز(٣).

التوجيه:

١-قراءة نافع بالهمز، ودلالتها:

قرأ (نافع) (النبيين) بالهمز، معرفة، ونكرة، ومفردًا، وجمعًا في جميع القرآن الكريم. و(النبيء) بالهمز مشتق من (النبأ) وهو" ظهور، أو طروء مسبوق، أو

(١) الراغب الأصفهاني. المفردات في غريب القرآن، تح: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، ط ، أولى١٤١٢ هـ، (ص٧٨٩).

(٢) اللقب: "ما أشعر برفعة المسمى؛ أي: بمدحه...أو أشعرَ ضِعَتَهُ أي: ذمه كذلك". أهـ، عبد الله بن أحمد الفاكهي النحوي المكي (٨٩٩ -٩٧٢ هـ) شرح كتاب الحدود في النحو، تح: د. المتولي رمضان أحمد الدميري، مكتبة وهبة –القاهرة، ١٤١٤ هـ -١٩٩٣ م. (ص: ١٥٠).

(٣) شمس الدين ابن الجزري (ت: ٨٣٣ هـ)، النشر في القراءات العشر تح: علي محمد الضباع (ت ١٣٨٠ هـ)، المطبعة التجارية الكبرى. (١/ ٤٠٦)

مكنوف بخفاءٍ ما"[١]. ويُفَرّقُ بينه، وبين الخبر؛ بأن النبأ "خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ؛ يحصلُ به علمٌ، أو غَلَبَةٌ ظنّ"[٢]. والنبيء فعيل، بمعنى مُفْعِل؛ أي: مُنْبِيءٌ عن الله ﷻ بما يُوحيه إليه، أو هو فعيل بمعنى مفعول، أي أنه مُنَبَّأٌ من الله ﷻ بالوحي؛ فدلت قراءة الهمز، على وظيفة النبي ﷺ من جهتيها (مصدرها وغايتها)؛ فهو (مُنَبَّأٌ) من الله ﷻ، اصطفاه الله ﷻ للنبوة، وهو (مُنَبِّيءٌ) عن الله ﷻ ؛ أي: مُبَلِّغٌ للناس ما نبأهُ اللهُ ﷻ به من وحي.

٢-قراءة الجمهور(النبيّ) بغير همز، ودلالتها: تحتمل هذه القراءة ثلاثة أوجه:

الأول: أن يكون (النبيّ) مِنْ نَبَا يَنْبُو، إذا ظهر، وارتفع؛ فـ" النبوة، والنبيّ: ما ارتفع من الأرض، والنبيّ: العَلَمُ من أعلام الأرض؛ التي يُهتدى بها، قال بعضهم: ومنه اشتقاق النبيُّ؛ لأنه أرفع خلق الله؛ وذلك لأنه يُهتدى به"[٣]. "وعلى هذا: فالنبيُّ فعيلٌ بمعنى فاعل؛ أي: ظاهرٌ ومرتفعٌ، أو بمعنى مفعول؛ أي: مرفوعٌ رفعهُ الله على خلقه"[٤]. ومن سنة الله ﷻ اصطفاء الرسل-عليهم السلام- من بيوت عالية المكانة في أقوامهم؛ جاء في سؤالات هرقل[٥] لأبي سفيان[٦] ﷺ عن النبي ﷺ: " ... سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب؛ فكذلك الرسل، تُبعثُ في نسب

(١) محمد حسن حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، مكتبة الآداب، القاهرة: ٢٠١٠ م. (٢١٤٦/٤) (مادة: نبأ).

(٢) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مرجع سابق، (ص: ٧٨٨) .

(٣) بن سيده أبو الحسن المرسي (ت: ٤٥٨ هـ)، المحكم والمحيط الأعظم، معهد المخطوطات العربية القاهرة (١٤٢٤ هـ -٢٠٠٣ م)، (١٧٥/١٢).

(٤) شهاب الدين المعروف بالسمين الحلبي (ت: ٧٥٦هـ)، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تح: أحمد محمد الخراط ط: دار القلم، دمشق. (٢٤٥/١).

(٥) قَالَ الحَافِظُ ابن حجر: هِرَقْل هو ملك الروم، وهو بكسر الهاء وفتح الراء وسكون القاف، ولقبه قيصر، وهو لقب كل من تملك الروم. أهـ. فَتْحِ الباري، مرجع سابق (١/ ١٤٩).

(٦) صخر بن حرب: بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، أبو سفيان القرشيّ الأمويّ أسلم عام الفتح، وشهد حنينا والطّائف، كان من المؤلفة، وكان قبل ذلك رأس المشركين يوم أحد، ويوم الأحزاب. أهـ، ابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، تح: عادل عبد الموجود وعلى معوض دار الكتب العلمية بيروت ط، أولى ١٤١٥ هـ. (٣ /٣٣٣).

قومها"[١]. قال الحافظ ابن حجر(ت: ٧٩٥ هـ):" الظاهر أن إخبار هرقل بذلك بالجزم؛ كان عن العلم المقرر عنده في الكتب السالفة"[٢].

الثاني: أن يكون (النبيّ) في اللغة بمعنى الطريق، قال الفيروز آبادي (ت: ٨١٧ هـ)؛ فالأنبياءُ هم طُرُقُ الهُدى. " قال أبو معاذ النحوي(ت:٢١١هـ)[٣]: سمعتُ أعرابياً يقول: من يَدُلني على النبيّ؟ أي الطريق"[٤].

الثالث: أن يكون (النبيّ) أصله (النبيء) جرى تخفيفه؛ لكثرة استعماله؛ فأُبْدلَ من الهمزة حرف من جنس ما قبلها، وأُدغمت الياء في الياء؛ فيكون بين القراءتين اشتراكٌ في المعنى.

العلاقة بين القراءتين:

قراءة الجمهور (النبيّ) بغير همز، وقراءة نافع المدني (النبيء) بالهمز، دلتا على أوجه من معاني النبوة، تلاقت لُغويًا في هذا اللقب الجليل، الذي لا غاية للبشر بعده؛ فهو ذروة سَنَام الكمال الإنساني؛ هذه المعاني تتمثل في أنّ مَنْ شرَّفه الله بهذا اللقب، وظيفته أن يكونَ (مُنَبَّأ) من الله ﷻ و(مُنَبِّئٌ) عن الله ﷻ، وإنما يصطفي الله ﷻ لهذه المهمة مِنَ البشر، مَنْ كَمُلَت خصاله؛ فكان بين الناس كالمكان المرتفع، تشخص إليه الأبصار، ويهتدي به المسافرون، وهو كالطريق الواضح المستقيم؛ الذي يسلكه مَنْ يطلب النجاة. ويزدادُ الأمر وضوحاً، عند تأمل قوله تعالى﴿ وَإِذَا

(١) أبو عبد الله البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تح: محمد زهير بن ناصر، طوق النجاة، ط أولى، ١٤٢٢هـ. باب: بدء الوحي. كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟(١/ ٩).

(٢) ابن حجر العسقلاني، النكت على صحيح البخاري، تح: أبو الوليد هشام بن علي السعيدني، أبو تميم نادر مصطفى محمود، المكتبة الإسلامية، القاهرة، أولى، ١٤٢٦ هـ -٢٠٠٥ م. (١ /١٩٨).

(٣) الفضل بن خالد أبو معاذ النحوي المروزيّ. ذكره ابن حبّان في الثقات ومات إحدى عشرة ومائتين أهـ. محمد شمس الدين الداوودي (ت: ٩٤٥هـ)، طبقات المفسرين، دار الكتب العلمية بيروت (٢/ ٣٢) .

(٤) محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (ت: ٣٧٠هـ)، تهذيب اللغة تح: محمد عوض مرعب، دار دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠١م. (١٥/ ٣٤٩).

جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾[الأنعام: ١٢٤]؛ فهؤلاء الكفار وضعوا شرطاً لإيمانهم بالله ﷻ؛ هو: أن يكونوا هم أنفسهم رسلاً لله ﷻ !! فرد الله ﷻ عليهم بقوله سبحانه وتعالى:﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾؛ وتلك تزكية إلهية واضحة للرسل الكرام، فالله ﷻ اختارهم لرسالته؛ لأنه أعلم بخلقه، ومَنْ يصلح للرسالة منهم، ومَنْ لا يصلح، وهؤلاء الكفار جاوزوا حدهم؛ بطلب منزلة الرسل السامقة دون استحقاق!!؛ فكان عقابهم نقيض قصدهم؛﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ ﴾!!! وهكذا تتلاقى الدلالات اللغوية للقراءتين مع منزلة النبوة العالية، ووظيفتها الشريفة، فبينهما صلةٌ وثيقةٌ، وتناسبٌ ظاهرٌ؛ قال تعالى عن نبيه إدريس عليه السلام: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾[مريم: ٥٧] وقال ﷻ عن أنبياءه –عليهم السلام–:﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ﴾[الأنبياء: ٧٣]﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾[إبراهيم: ١١].

أثر القراءتين في بيان السيرة النبوية:

هذا اللقب الشريف بقراءتيه(النبيّ–النبيء) وما تدلان عليه من معاني، يُلخص معالم النبوة في شخص النبي الكريم ﷺ، وما جمعه الله فيه ﷺ، من فضائل، وخصائص؛ جعلته في منزلة عالية شريفه، تتناسب مع وظيفة النبوة، والرسالة، وهو ما تم ذكره في آيات كثيرة منها قوله تعالى ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] ، وقوله تعالى:﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ، وقوله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥–٤٦] ، وقوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾

[الشورى: ٥٢-٥٣] . وكان من إكرام الله ﷻ لنبيه ﷺ؛ أنه لم يُخاطبه إلا بأحد اللقبين الشريفين﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾(١)﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ (٢).

إشعارًا بما يحملانه من مدح. والبشر الذين حازوا شرف هذه اللقب الرفيع بُدأوا بآدم عليه السلام، وخُتموا بالنبيّ محمدٍ ﷺ، و(ختم النبوة)، هو موضوع المبحث التالي.

(١) ورد هذا النداء اثنتا عشرة مرة في القرآن الكريم.
(٢) ورد هذا النداء مرتين في القرآن الكريم.

المبحثُ الثاني

خَتْمُ النبوة بالنبيّ محمد ﷺ

الآية الكريمة:﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾[الأحزاب: ٤٠].

التفسير:﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾[الأحزاب: ٤٠]، فليس أبَا زيدٍ[١]، أي: والده؛ فلا يَحْرُمُ عليه التزوج بزوجته زينب[٢]﴿ وَلَكِنْ﴾ كان ﴿ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّين﴾ ؛ فلا يكون له ابنٌ رجلٌ، بعده يكون نبيًا..."[٣]. و" لما لم يكن مُطلق النبوة، ولا مطلق الرسالة منافياً لأُبوةِ الرجال قال: ﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّين﴾ ؛ أي: لأنّ رسالته عامة، ونبوته معها إعجاز القرآن؛ فلا حاجة مع ذلك إلى اسْتنباءٍ، ولا إرْسَالٍ؛ فلا يُولد بعده مَنْ يكونُ نبياً، وذلك مقتضٍ؛ لئلا يبلغ له، ولدٌ يُولدُ مَبْلغَ الرجال، ولو قضي أن يكون بعده نبيّ، لما كان إلا من نسله إكراماً له؛ لأنه أعلى النبيين رتبة، وأعظم شرفاً، وليس لأحدٍ من الأنبياء كرامة، إلا وله مثلها، أو أعظم منها، ولو صار أحد من ولده رجلاً؛ لكان نبياً بعد ظهور نبوته، وقد قضى الله ألاَّ يكون بعده نبي إكراماً له ﷺ "[٤].

القراءات: قرأ الجمهور (وَخَاتِمَ) بكسر التاء، وقرأ عاصم (وَخَاتَمَ) بفتحها[٥]، وكلمة (خاتم) من فرائد الكلمات القرآنية؛ لم ترد بهذه الصيغة إلا في هذا الموضع.

توجيه قراءة الجمهور: (وَخَاتِمَ) بكسر التاء، على أنه اسم فاعل من ختم، أي: فاعل

---

(١) هو الصحابي الجليل (زيد بن حارثة) ﷺ ، ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة. مرجع سابق.

(٢) هي أم المؤمنين (زينب بنت جحش) -رضي الله عنها-ويُرجع في قصة زواجها-رضي الله عنها-إلى تفسير سورة الأحزاب، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، (٦/ ٤٠٧).

(٣) جلال الدين المحلي (ت: ٨٦٤هـ)، وجلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) تفسير الجلالين، دار الحديث، القاهرة: (ص: ٥٥٦) (ب ــ ت).

(٤) أبو الحسن، برهان الدين البقاعي (ت: ٨٨٥ هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، بيروت ،١٤١٥هـ ،١٩٩٥ م، تح: عبد الرزاق غالب المهدي. (١١٢/٦).

(٥) شمس الدين بن الجزري، النشر في القراءات العشر، مرجع سابق (٢/ ٣٤٨).

الختم. من قولك: ختم النبيين، فهو خاتمهم. والفاعل ضمير مستتر تقديره (هو) يعودُ على نبينا (محمدﷺ) المتقدم ذكره في صدر الآية.

توجيه قراءة عاصم: (وَخَاتَمَ) بفتح التاء، اسم للآلة، كالطابع، والقالب؛ على تشبيهه بالخاتم[١] الذي يُخْتم به المكتوب؛ في أنَّ ظهوره كان غلقاً للنبوة، فمعناه: آخر النبيين. قال الشريف الرضيّ(ت:٤٠٦هـ):"...والمراد بها أن الله –تعالى– جعله ﷺ حافظاً لشرائع الرسل –عليهم السلام–وكتبهم، وجامعاً لمعالم دينهم، وآياتهم كالختم الذي يُطبع به على الصحائف، وغيرها؛ ليحفظ ما فيها، ويكون علامة عليها..."[٢]. **قلت:** وإنما تُختم الصحائف في آخرها. قال الإمام الطبري(٣٠١٠هـ): "...خاتم النبيين، الذي ختم النبوة فَطُبع عليها، فلا تُفتح لأحدٍ بعده إلى قيام الساعة"[٣] فقراءة (وخاتَم) بفتح التاء أكدت معنى قراءة (وخاتِم) بكسرها؛ فقد أضافت إلى الإخبار المباشر صورة التشبيه الحسية؛ التي تُبقي المعنى حياً ماثلاً؛ تتصوره مُخيلة السامع بما يليق به.

الرد على تحريف القاديانية[٤] لمعنى قراءة:﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾[الأحزاب: ٤٠].

بهذا التوجيه الواضح؛ الموافق لأصول اللغة، وقواعد التفسير؛ يتأكد ضلال فرقة القاديانية، التي حاولت التشكيك في عقيدة ختم النبوة؛ من خلال القول بأن قراءة (خَاتَمَ) معناه أفضل[٥]. وهذا القول تأباه اللغة العربية، التي نزل بها القرآن

(١) البنا الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، مرجع سابق، (ص: ٤٥٥).
(٢) الشريف الرضي (ت: ٤٠٦)، تلخيص البيان في مجازات القرآن تح: محمد عبد الغني حسن، دار الأضواء، بيروت، ط، ثانية ١٩٨٦م. (ص ٢٢).
(٣) ابن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، (٢٠/ ٢٧٨).
(٤) القاديانية: "حركة نشأت سنة ١٩٠٠م بتخطيط من الاستعمار الإنجليزي في القارة الهندية، بهدف إبعاد المسلمين عن دينهم، وعن فريضة الجهاد بشكل خاص؛ حتى لا يواجهوا المستعمر باسم الإسلام... ويعتقد القاديانية بأن النبوة لم تختم بمحمد ﷺ بل هي جارية، والله يرسل الرسول حسب الضرورة، وأن غلام أحمد هو أفضل الأنبياء جميعاً. وقد أجمع علماء الإسلام أنها فرقة من فرق الكفر" أهـ. الندوة العالمية للشباب الإسلامي إشراف، مانع بن حماد الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة، ط رابعة، ١٤٢٠ هـ. (١/ ٤١٧).
(٥) السابق نفس الموضع.

الكريم؛ فلم يرد فيها لفظ (خَاتَم) بمعنى الأفضل، ثم إنهم أهملوا القراءة المتواترة الأخرى بكسر التاء (خَاتِم)، وهي نصٌ في كون النبيّ ﷺ آخر النبيين، ولا نبي بعده. وهذا المنهج الأعور ذكره الله في كتابه، ووصف أصحابه بالذين في قلوبهم زيغ فقال –سبحانه–:﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ ﴾[آل عمران: ٧]، وحذر منهم النبي ﷺ فقال :" فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمّى الله فاحذروهم" (١).

تفسير خاتم النبيين ﷺ لقوله تعالى:﴿ ... وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾:

هناك أحاديث نبوية صحيحة صريحة، قطعية الدلالة على معنى كون النبي ﷺ خاتم النبيين، وخصص الإمام البخاري (ت: ٢٥٦ ه)، في كتاب المناقب من صحيحه باباً عنوانه: (خاتم النبيين ﷺ) روى فيه بسنده عن أبي هريرة ﷺ ، أن رسول الله ﷺ، قال: إنّ " مثلي، ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجلٍ بنى بيتاً، فأحسنه، وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون هلا وُضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين " (٢). فهذا تشبيه للنبوة ببيتٍ، الأنبياء هم لبناته، وكان النبي ﷺ آخر تلك اللبنات التي اكتمل بها بناء بيت النبوة المبارك. ومن أبواب كتاب الفضائل في صحيح الإمام مسلم (ت: ٢٦١ه) باب: ذِكْرٌ كونه ﷺ خاتم النبيين، ومما رواه الإمام مسلم فيه بسنده عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، أن النبيّ ﷺ ، قال: «أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي، الذي يُمْحَى بِي الكفرُ، وأنا الحاشرُ الذي يُحْشَر الناس على عقبي، وأنا العاقب والعاقب الذي ليس بعده نبي»(٣). وعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: " فُضلت على الأنبياء بستٍ: أُعطيت جوامع الكلم، ونُصرت بالرعب، وأُحلت لي الغنائم،

(١) صحيح البخاري. ك: التفسير، ب:﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧] (٦/ ٣٤) حديث رقم: ٤٥٤٧.
(٢) صحيح البخاري (٤/ ١٨٦) ك: المناقب. ب: خاتم النبيينﷺ حديث رقم: ٣٥٣٥.مرجع سابق.
(٣) مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١ هـ) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ تح: مجموعة من المحققين ط: دار الجيل – بيروت. سنة ١٣٣٤ هـ. ك: الفضائل ب: ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين،(٤/ ١٨٢٨).

وجُعلت لي الأرض طهورًا، ومسجدًا، وأُرسلت إلى الخلق كافة، وخُتم بي النبيون"[١].

قال الإمام ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ): "والأحاديث في هذا كثيرة، فمن رحمة الله -تعالى-بالعباد إرسال محمد-صلوات الله، وسلامه عليه-إليهم، ثم مِنْ تشريفه لهم؛ ختمُ الأنبياء، والمرسلين به، وإكمال الدين الحنيف له. وقد أخبر- تعالى-في كتابه، ورسوله في السنة المتواترة عنه: أنه لا نبي بعده؛ ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده، فهو كذاب أفاك، دجال ضال مُضل" [٢].

علاقة (خَاتَم النبوة) الوارد في الوصف الخِلْقي للنبي ﷺ بكونه ﷺ (خَاتَم، وخَاتِم النبيين):

هذه -بفضل الله تعالى-مسألة جديدة أشرقت؛ من بركة التلاقح بين علميّ السيرة، وتوجيه القراءات، أبدأها بروايتين من صحيحي البخاري، ومسلم عن حقيقة (خاتم النبوة) الذي شرفت عيون الصحابة ﷺ برؤيته في ظهره الشريف ﷺ ، فوصفوه لنا. روى البخاري بسنده عن السائب بن يزيد، قال: ذهبت بي خالتي إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن ابن أختي وقع. فمسح رأسي، ودعا لي بالبركة، وتوضأ. فشربت من وَضُوئِه، ثم قمت خلف ظهره، «فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه» ..."[٣].

وقول السائب ﷺ:" فنظرت إلى خاتم النُّبوة بين كتفيه" بكسر تاء خاتم أي: فاعل الختم، وهو الإتمام، والبلوغ إلى الآخر، وبفتحها، وهو بمعنى الطابع، ومعناه

(١) صحيح مسلم (١/ ٣٧١). ك: المساجد ومواضع الصلاة. حديث رقم: ٥٢٣. مرجع سابق.
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، (٦/ ٤٣٠).
(٣) صحيح البخاري (٧/ ١٢٠) ك: المرضى. ب: من ذهب بالصبي المريض ليدعي له حديث رقم: ٣٥٤١.

الشيء الذي هو دليل على أنه لا نبي بعده، وفيه صيانة لنبوته ﷺ من تطرق القدح إليها؛ صيانة الشيء المستوثَق بالختم" (١).

وروى الإمام مسلم بسنده عن سماك، قال: سمعت جابر بن سمرة ﷺ، قال: "رأيت خاتمًا في ظهر رسول الله ﷺ، كأنه بيضة حمام"(٢).

ومُحَصَّلُ الروايات في وصف خاتم النبوة أنه " كان نتوءًا قاتمًا أحمر، تحت كتفه الأيسر"(٣). ﷺ. و"الحكمة في الخاتم على وجه الاعتبار؛ أن قلبه ﷺ لما مُلِئَ حكمةً، وإيمانًا -كما في الصحيح -خُتم عليه، كما يُختم على الوعاء، المملوء مِسْكًا، أو دُرًّا، فجمع الله أجزاء النبوة له، وتممه، وختم عليه بخاتم، فلم يجد عدوه سبيلاً إليه؛ من أجل ذلك الختم لحراسته؛ لأنّ المختومَ محروسٌ، وكذا تدبير الله لنا في هذِه الدنيا؛ إذا وُجد الشيء بختمه، زال الشك، وانقطع الخصام، فيما بين الآدميين"(٤).

قلت: فخاتم النبوة بين كتفي النبي ﷺ علامة نبوته، ونبوته هي النبوة الخاتمة؛ فخاتم نبوته هو (خاتم النبوة الخاتمة)؛ إذ لم يرد في القرآن، ولا في السنة أن خاتم النبوة الذي كان في ظهره الشريف من الأمور المشتركة بين الأنبياء؛ بل النظر يُؤيد كونه من خصائصه ﷺ؛ إذ لو كان مشتركاً؛ فكيف يكون علامة على أنه نبي آخر الزمان، ولو كان مشتركاً بين الأنبياء؛ لما كان لاختبار إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام معنى؛ إذ لو كان خاتم النبوة في جسد إسماعيل عليه السلام لعلم أبوه عليه السلام أنه لن ينتهي أجله قبل أن يُوحي إليه بالنبوة؛ فختم النبوة وعد إلهي بها، والكريم ﷻ لا يُخلف وعده وأنبياء الله-عليهم السلام- هم أعلم الناس بالله ﷻ. والله تعالى أعلم.

---

(١) محمَّد الخَضِر الجكني الشنقيطي (ت: ١٣٥٤هـ) كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري، مؤسسة الرسالة، بيروت ط أولى، ١٤١٥ هـ -١٩٩٥ م. (٥/ ٢٨،٢٧).

(٢) صحيح مسلم (٤/ ١٨٢٣) ك: الفضائل، ب: إثبات خاتم النبوة، وصفته، ومحله من جسده ﷺ. مرجع سابق.

(٣) أبو العباس القرطبي (٥٧٨ -٦٥٦ هـ)، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، تح، محيي الدين ديب ميستو، (دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت) الأولى، ١٤١٧ هـ -١٩٩٦ م. (٦/ ١٣٥).

(٤) ابن الملقن سراج الدين الشافعي المصري (ت: ٨٠٤هـ)، التوضيح لشرح الجامع الصحيح تح: دار الفلاح للبحث العلمي، والتراث. دار النوادر، دمشق – سوريا: الأولى، ١٤٢٩ هـ -٢٠٠٨ م. (١٢٥/٢٠، ١٢٦).

موقف الصحابة ﷺ من مُدَعي النبوة، ودلالاته: لرسوخ عقيدة ختم النبوة في قلوب الصحابة ﷺ، وتواترها عندهم؛ أجمعوا على تكذيب كل مُدعٍ للنبوة بعد انتقال النبي ﷺ للرفيق الأعلى، وقتاله مثل (مُسيِّلمة الكذَّاب، والأسود العَنْسيّ، وسَجَاح)[1]، ولم يشذ عن هذا الإجماع أحد منهم؛ فمن ادعي النبوة بعده ﷺ؛ فالواجب نحوه هو التكذيب، لا طلب البرهان على دعواه؛ واستنبط الإمام الماتريدي (ت: ٣٣٣هـ) ذلك من الآية فقال أخبر بقوله:﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾: " أنَّ من ادَّعى ذلك لا يُطالب بالحجة، والدلالة؛ ولكنه يُكَذَّب"[2].

وذكر الإمام ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ): أنَّ " هذه الآية نصٌ في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده؛ فلا رسول بعده بالطريق الأولى، والأحرى؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة؛ فإنَّ كُل رسول نبيّ، ولا ينعكس"[3] وقال الإمام الطاهر بن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ): "ولا يُعكر على نصية الآية، أنَّ العموم[4] دلالته على الأفراد ظنية؛ لأن ذلك لاحتمال وجود مُخصص، وقد تحققنا عدم المخصص بالاستقراء"[5].

ولما كان النبي محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء؛ فإن الله ﷻ حفظ معجزة نبوته، وبرهان رسالته (القرآن الكريم) من التحريف، والتبديل، وجعله حجة إلى قيام الساعة، وهذا موضوع المبحث التالي:

(١) انظر: تفاصيل ادعائهم النبوة، وحروب الردة التي نصر الله فيها أصحاب النبي ﷺ في: ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ) البداية والنهاية تح، عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، الأولى، ١٤١٨ هـ، (٩/ ١٦٠).

(٢) محمد، أبو منصور الماتريدي (ت: ٣٣٣هـ)، تأويلات أهل السنة، تح: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية -بيروت، لبنان، الأولى، ١٤٢٦ هـ -٢٠٠٥ م. (٨/ ٣٩٦).

(٣) . ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٢٨) مرجع سابق.

(٤) العُموم: الشمول وهي عبارة عن إحاطة الأفراد دفعةً. أهـ. التعريفات الفقهية، محمد عميم الإحسان المجددي البركتي: دار الكتب العلمية، ط أولى، ١٤٢٤هـ -٢٠٠٣م. (ص: ١٥٢).

(٥) محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)، التحرير، والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر -تونس، ١٩٨٤ هـ. (٢٢/ ٤٥).

المبحث الثالث

حفظُ القرآنِ الكريمِ

الآية الكريمة:﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾[البروج: ٢١-٢٢].

التفسير: "﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴾: هذا رد لكفرهم، وإبطال لتكذيبهم، وتحقيق للحق، أَي: بل هذا الذي جئتهم فكذبوا به، كتاب شريف عالي المنزلة في الكتب السماوية في نظمه، وإعجازه؛ فلا يحق تكذيبه، والكفر به. والله أَعلم.﴿ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾: القرآن محفوظ بعد التنزيل من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص، كما قال تعالى:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وقيل: مكتوب، ومحفوظ في ذلك اللوح عن وصول الشياطين إليه، واللوح المحفوظ نحن نُؤمن به، ولا يلزمنا البحث عن ماهيته، وحقيقته، وكيفية كتابته، ونحو ذلك. والله أَعلم"(١).

القراءات: قرأ الجمهور:﴿ مَحْفُوظٍ ﴾بخفض الظاء. وقرأ نافع:﴿ مَحْفُوظٌ ﴾ برفعها(٢).

التوجيه:

أولاً: قراءة﴿ مَحْفُوظٍ ﴾ بالخفض "على معنى أن اللوح هو المنعوت بالحفظ. وإذا كان ذلك كذلك كان التأويل: في لوح محفوظ من الزيادة فيه، والنقصان منه عمّا أثبته الله فيه"(٣). وفيها إشارة إلى حفظ محل القرآن الكريم في السماء الوارد في قوله تعالى:﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾[الزخرف: ٤]، وجرى التصريح بحفظه في قوله تعالى:﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) ﴾[الواقعة: ٧٧-٧٩].

---

(١) مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، التفسير الوسيط للقرآن الكريم ط، أولى، (١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م) (١٤١٤ هـ = ١٩٩٣ م). (١٠/ ١٨٦١).

(٢) أبو بكر بن مجاهد البغدادي (ت: ٣٢٤هـ)، السبعة في القراءات تح: د: شوقي ضيف: دار المعارف – مصر: الثانية، ١٤٠٠هـ. (ص: ٦٧٨).

(٣) . ابن جرير الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، (٢٤/ ٣٤٨).

ثانياً: قراءة نافع:﴿ مَحْفُوظٌ﴾ بالرفع على أنه نعتٌ للقرآن، والمعنى: (قرآنٌ محفوظٌ في لوحٍ)، ومعنى حفظ القرآن، أنه يُؤْمَنُ من تحريفه، وتبديله، وتغييره؛ فلا يلحقه من ذلك شيء(١).

العلاقة بين القراءتين:

القراءة الأولى دلت على حفظه في السماء، فالقرآن محفوظ قبل نزوله، والقراءة الثانية دلت على حفظه في الأرض، فالقرآن محفوظ كذلك بعد نزوله قال تعالى:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] فهاتان القراءتان، تُلقيان اليقين في قلب المؤمن، بأن القرآن الكريم –معجزة النبي ﷺ–محفوظ من طرفيه بدأً، وانتهاءً، وأنَّ هذا الحفظ باق؛ لأنه يقومُ مقامَ النبوة الخاتمة، إلى قيام الساعة؛ فإنَّ الأنبياء–عليهم السلام– إنما يُبعثون؛ لتحريفٍ وقعَ في كتب مَنْ سَبقهم مِنْ الأنبياء، وخفاء الحجة على أجيال أتت بعد ذلك التحريف؛ لكن القرآن محفوظٌ من ذلك؛ فانتفى وجه الحاجة إلى النبوات بعد النبي الخاتم ﷺ، فمعجزته محفوظة، مُيسرة للذكر، قائمة بها الحجة إلى قيام الساعة. قال الإمام البقاعي (ت: ٨٨٥هـ)–رحمه الله–:" فائدة إتيان النبيّ؛ تتميم شيء لم يأت به مَنْ قبله، وقد حصل به ﷺ التمام؛ فلم يبق بعد ذلك مرام"(٢).

أثر القراءتين في بيان السيرة النبوية:

إذا كان القرآن الكريم محفوظًا في السماء، ومحفوظًا في الأرض؛ كما دلت عليه القراءتان؛ فإنَّ مِنْ أهم مظاهر، وأسباب حفظه في الأرض شخصية الرسول ﷺ الذي نزل عليه، وأُمر بتبليغه؛ فقد كانت سيرته الشريفة أعظم آية على كون القرآن الكريم محفوظًا؛ فقد كان يُرتله ﷺ في ناشئة الليل في بيته، وعند الكعبة، وفي سفره، بين وديان الجبال، وعلى راحلته، ويُعلمه لأصحابه ﷺ، ويُمليه عليهم

(١) أبو زرعة ابن زنجلة (ت: ٤٠٣ هـ)، حجة القراءات، تح: سعيد الأفغاني، دار الرسالة، (ص: ٥٨٣).
(٢) برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مرجع سابق، (٦/ ١١٢).

ليكتبوه، ويُحب أنْ يسمعَ تلاوته منهم، ويقرأه ﷺ في خطبه على منبره الشريف، وكان له ﷺ حزب من القرآن، لا يخرج من بيته حتى يقضيه، وجعل الله من وظيفته ﷺ بيان القرآن، وتكفل له بحفظه في صدره، ووعده بأن لا يطرأ عليه نسيان، فيما أُمر بتبليغه، وكل ما تقدم دَلّ عليه القرآن الكريم، ودلت عليه السنة المطهرة؛ ومن يقرأ كتاب فضائل القرآن في صحيح البخاري(١)، وغيره من كتب السنة يجد شواهد صحيحة صريحة على كل ما سبق. فشخصية النبي ﷺ ترتبط بالقرآن الكريم وحفظه أعظم ارتباط؛ ذلك أنه معجزته الكبرى ﷺ، وبرهان نبوتهﷺ، ودستور شريعته ﷺ. ولما كان حفظ القرآن الكريم مُرتبطٌ بـــ (عصمة النبي ﷺ في تبليغ الوحي) كان هذا هو عنوان المبحث التالي.

(١) صحيح البخاري، كِتَابُ: فَضَائِلِ القُرْآنِ. مرجع سابق. (٦/ ١٨١).

المبحث الرابع

عصمةُ النبيّ ﷺ في تبليغ الوحي

الآية الكريمة:﴿ ... وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾[التكوير: ٢٤].

التفسير: "﴿ وَمَا هُوَ ﴾ النبيّ محمد ﷺ ﴿عَلَى الْغَيْبِ﴾ مَا غَابَ مِنْ الْوَحْيِ وَخَبَرِ السماء (بظنين) أَيْ: بِمُتَّهَمٍ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِالضَّادِ أَيْ بِبَخِيلٍ فَيَنْتَقِص شَيْئًا مِنْهُ"(١). " والوحي في اللغة: الإعلام في خفاء. وفي الشرع: كلام الله المُنَزَّل على نبيٍّ من أنبيائه"(٢).

القراءات: " قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي (بِظَنِينٍ) بالظاء على ما قيّده في القراءة، وقرأ الباقون بالضاد على ما لُفظ به"(٣).

التوجيه:

القراءة الأولى: (وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ) بالظاء، معنى الظنين: المتهم؛ يقال: ظننت زيداً بمعنى اتهمته، وليس من الظن الذي هو الشعور، والإدراك؛ فإن ذاك يتعدى إلى مفعولين، بمعنى: ما هو بمتهم على الوحي(٤) فليس هذا الرسول على القرآن بمتهم، بل هو أمين لا يزيد فيه، ولا ينقص(٥). فهوﷺ صادق في إخباره عن الوحي، وما تضمنه من السمعيات؛ كما جاء في سؤالات هرقل لأبي سفيانﷺ: " وسألتك، هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أنْ لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس؛ ويكذب على الله. "(٦).

---

(١) جلال الدين المحلي، جلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين مرجع سابق، (ص: ٧٩٤) بتصرف.
(٢) ابن حجر العسقلاني، النكت على صحيح البخاري مرجع سابق (١/ ١٥٦).
(٣) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر (٢/ ٣٩٨) مرجع سابق .
(٤) ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، تح: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، (ص: ١٢٥).
(٥) محمد بن الحسن بن محمد الفاسي (ت٦٥٦: ه)، شرح الفاسي على الشاطبية المسمى باللآلئ الفريدة في شرح القصيدة ٣ /٤٦٧. تح: عبد الرزاق موسى، مكتبة الرشد. الأولى:١٤٢٦هـ٢٠٠٥م.
(٦) سبق تخريج الحديث، كما سبق التعريف بكل من هرقل، وأبي سفيانﷺ. في المبحث الأول.

القراءة الثانية: ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ بالضاد قال الراغب (ت: ٥٠٢هـ): " أي: ما هو ببخيل، والضَّنَّةُ هو البخل بالشيء النّفيس "[١]." يقول: لا يبخل محمد ﷺ بما آتاه الله من العلم، والقرآن، ولكن يُرشد، ويُعلم، ويُؤدي عن الله جلَّ، وعز[٢]، وقد "وصفه الله تعالى بذلك، لحرصه على الهداية، وتشميره في تبليغ الرسالة. وأجمع المفسرون على أن الغيب ههنا القرآن، والوحي"[٣]. وقال أبو علي الفارسي (ت: ٣٧٧هـ): " المعنى: إنه يُخْبَرُ بالغيب، فيبثّه، ولا يكتمه، كما يمتنع الكاهن من إعلام ذلك؛ حتى يأخذ عليه حُلْوَاناً. "[٤] وعن عائشة –رضي الله عنها– قالت: "مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ محمداً ﷺ كَتم شيئا، مما أنزل الله عليه، فقد كذب"؛ والله يقول: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [المائدة: ٦٧] [٥]. قال الفرَّاء (ت: ٤٥٨هـ): "يأتيه غيب السماء، وهو شيء نفيس نفيس فلا يبخل به عليكم"[٦] ، واستحسن ابن القيم (ت: ٧٥١هـ) استنباط الفرَّاء؛ فقال:" وهذا معنى حسنٌ جداً؛ فإن عادة النفوس الشح بالشيء النفيس، ولا سيما عمَّن لا يعرف قدره، ويذمه، ويذم من هو عنده، ومع هذا فهذا الرسول لا يبخل عليكم بالوحي، الذي هو أَنْفَسُ شيءٍ وأجلَّه"[٧]. ثم استنبط ابن القيم معنى جديداً،

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (ص: ٥١٢) مرجع سابق.

(٢) ابن زنجلة، حجة القراءات (ص: ٧٥٢). مرجع سابق. وانظر: علم الدين السخاوي (ت ٦٤٣ه)، فتح الوصيد في شرح القصيد١٣١١/٤، تح د. مولاي محمد الإدريسي، مكتبة الرشد. الثانية:١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥م.

(٣) علم الدين السخاوي، فتح الوصيد ١٣١١/٤ مرجع سابق.

(٤) الحسن بن الفارسيّ، أبو علي (ت: ٣٧٧هـ)، الحجة للقراء السبعة (٦/ ٣٨١) تح: بدر الدين قهوجي ط: دار المأمون للتراث -دمشق / بيروت: الثانية، ١٤١٣ هـ -١٩٩٣م. و"حلوان الكاهن: هو ما يعطاه من الأجر والرشوة على كهانته يقال: حلوته أحلوه حلوانا. والحلوان مصدر كالغفران" أ هـ، مجد الدين ابن الأثير (ت: ٦٠٦هـ) «النهاية في غريب الحديث والأثر» (١/ ٤٣٥). المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ -١٩٧٩م تح: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي.

(٥) صحيح البخاري (٦/ ٥٢) ك: تفسير القرآن. ب:﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾[المائدة: ٦٧] حديث رقم: ٤٦١٢. مرجع سابق.

(٦) أبو عبد الله الملقب بفخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ)، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ٧٠)، دار إحياء التراث العربي – بيروت: الثالثة -١٤٢٠ هـ.

(٧) ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن مرجع سابق، (ص: ١٢٥).

فقال: " وفيه معنى آخر، وهو أنه على ثقة، من الغيب الذي يُخْبِر به؛ فلا يخاف أنْ يُنْتَقَضُ؛ ويظهر الأمر بخلاف ما أخبر به، كما يقعُ للكهان، وغيرهم ممن يُخبر بالغيب؛ فإنَّ كَذِبَهُم أضعاف صِدْقِهم، وإذا أخبر أحدهم بخبر لم يكن على ثقة منه، بل هو خائفٌ من ظهور كذبه؛ فإقدام هذا الرسول على الإخبار بهذا الغيب العظيم، الذي هو أعظم الغيب، واثقاً به، مُقيماً عليه، مُبدياً له في كل مجمع، ومُعيداً منادياً به على صدقه، مُجْلِباً[1] به على أعدائه؛ من أعظم الأدلة على صدقه "[2].

العلاقة بين القراءتين:

أثبتت قراءة الضاد (بضنين) عصمة النبيﷺ من كتمان الوحي؛ فإن البخل والضِنَّةَ بالغيب؛ مؤداه الكتمان. وأثبتت قراءة الظاء (بظنين) عصمة النبي ﷺ من الظِنَّة، والتهمة المؤدية إلى التبديل. يقول الإمام أبو عمر الداني (ت: ٤٤٤هـ): " المراد بهاتين القراءتين جميعاً، هو النبي ﷺ؛ وذلك أنه كان غير ظنين على الغيب، أي: غير مُتّهم، فيما أخبر به عن الله تعالى، وغير ضَنينٍ به؛ أي: غير بخيلٍ، بتعليم ما علمه الله، وأنزله إليه، فقد انتفى عنه الأمران جميعاً، فأخبر الله –تعالى– عنه بهما في القراءتين "[3].

أثر هاتين القراءتين في بيان السيرة النبوية:

تُظهر هاتان القراءتان جانباً من أهم جوانب السيرة النبوية؛ يتعلق بعصمة الرسول ﷺ في تلقي الوحي، وتبليغه، والوحي، والوثاقة فيه، وهو أهم معالم النبوة؛

---

(١) (جَلَبَ) عَلَى فَرَسِهِ يَجْلُبُ (جَلَبًا) بِوَزْنِ يَطْلُبُ طَلَبًا صَاحَ بِهِ مِنْ خَلْفِهِ وَاسْتَحَثَّهُ لِلسَّبْقِ وَكَذَا (أَجْلَبَ) عَلَيْهِ وَأَجْلَبُوا تَجَمَّعُوا.أهـ. زين الدين الحنفي الرازي (ت: ٦٦٦هـ)، مختار الصحاح (مادة: جلب). تح: يوسف الشيخ محمد ط: المكتبة العصرية. بيروت: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م. (ص: ٥٩).

(٢) ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، مرجع سابق، (ص: ١٢٥).

(٣) عثمان أبو عمرو الداني (ت: ٤٤٤هـ)، جامع البيان في القراءات السبع (١/ ١٢٢)، جامعة الشارقة، الأولى، ١٤٢٨ هـ -٢٠٠٧ م.

فهاتان القراءتان تختصران ما ورد في السيرة الشريفة؛ من أمانة الرسولﷺ المطلقة، وحرصه التام على كمال التبليغ.

وإذا ثبت أن القرآن محفوظ في السماء، محفوظ في الأرض، محفوظ في تبليغ الرسول ﷺ ؛ فهو كذلك محفوظ بعدالة الصحابة ﷺ، ورسوخ إيمانهم، وثبات هدايتهم، وصحيح تقواهم، فهم الذين تلقوه من الرسول ﷺ، وحفظوه في صدورهم، وجمعوه في صحفهم، ومصاحفهم، وبلغوه لغيرهم، وهذا هو موضوع المبحث التالي.

المبحث الخامس

عصمةُ النبيّ ﷺ مِنْ اتخاذ المضلين أعواناً، وعدالة صحابته ﷺ

الآية الكريمة:﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾[الكهف: ٥١].

التفسير: "يقول عزّ ذكره: ما أشهدت إبليس، وذرّيته﴿ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾يقول: ما أحضرتهم ذلك؛ فأستعين بهم على خلقها﴿ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ يقول: ولا أشهدت بعضهم أيضا خلقَ بعضٍ منهم؛ فأستعين به على خلقه، بل تفرّدت بخلق جميع ذلك بغير معين، ولا ظهير، يقول: فكيف اتخذوا عدوّهم أولياء من دوني، وهم خلق من خلقي أمثالهم، وتركوا عبادتي، وأنا المنعم عليهم، وعلى أسلافهم، وخالقهم، وخالق من يوالونه من دوني منفرداً بذلك من غير معين، ولا ظهير. وقوله:﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾[الكهف: ٥١] يقول: وما كنتُ متخذ مَنْ لا يهدي إلى الحقّ، ولكنه يضلّ، فمن تبعه يجور به عن قصد السبيل أعوانًا، وأنصارًا، وهو من قولهم: فلانٌ يُعَضد فلانًا؛ إذا كان يقوّيه، ويُعينه"(١).

القراءات: قرأ الجمهور:﴿ وَمَا كُنْتُ﴾ بضم التاء، وانفرد أبو جعفر بقراءتها:﴿وَمَا كُنْتَ﴾ بفتحها(٢).

التوجيه:

قراءة الجمهور: بضم التاء﴿ وَمَا كُنْتُ﴾ ضميراً للمتكلم فيها إخبار من الله تعالى عن ذاته المقدسة(٣). "بأنه ليس في حاجة للاستعانة بأحدٍ من خلقه فضلاً عن المضلين؛ لأنه هو الله القوى العزيز الذي أوجد العالم من العدم، وليس له شريك في الملك، ولم يتخذ صاحبة، ولا ولداً، وقد جرى الكلام، في هذه القراءة، على نسق ما

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان، مرجع سابق (١٨/ ٤٤).
(٢) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، مرجع سابق (٢/ ٣١١).
(٣) البنا الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر مرجع سابق. (ص: ٣٦٨)

قبله في قوله تعالى :﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ...﴾[الكهف: ٥١] (١).

قراءة أبي جعفر: بفتح التاء ضميراً للمخاطب:﴿ وَمَا كُنْتَ ﴾"خطاباً للنبي ﷺ ؛ ليُعلم أمته، أنه لم يزل محفوظاً، من أول نشأته، لم يَعْتَضِد بمضلٍ، ولا مال إليه ﷺ".(٢) وبالرجوع إلى الآيات السابقة للآية الوارد فيها القراءة؛ نجد ما يُمهد لمعنى قراءة الإمام أبي جعفر–رحمه الله–، ويتناسب معها، وهو قوله ﷻ: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨] ؛ فهذه الآية تشرح قراءة أبي جعفر؛ فمن كان شأنه ألا يتخذ المضلين عضداً، سيكون شأنه أن يتخذ عضداً، وأنصاراً من هؤلاء: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ وما أبعده عن هؤلاء : ﴿ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾.

وجه الدلالة على العصمة: القراءة محل الاستشهاد، هي قراءة الإمام أبي جعفر –رحمه الله–وهي تدل على وجه من وجوه عصمة النبي ﷺ؛ وهو أن الله حفظه ﷺ من اتخاذ المضلين أعوانًا، أو الميل إليهم. وفي الآية على هذه القراءة التفاتٌ من التكلم إلى الخطاب(٣).والنفي هنا نفي للشأن، وهو أبلغ، وأقوى في الدلالة مِنْ نفي

(١) محمد سالم محيسن (ت: ١٤٢٢ هـ) المغني في توجيه القراءات العشر، دار الجيل، بيروت، مكتبة الكليات الأزهرية، الثانية، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م. (٣/ ٣٧٤).

(٢) البنا الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر مرجع سابق (ص: ٣٦٨).

(٣) الالتفات: "ظاهرةَ من ظواهر الخروج عن مقتضى الظاهر في الكلام البليغ، لداعٍ من الدواعي البلاغيّة ذات التأثير في النفوس والأفكار، لما فيها من عناصر فَنِّيَّةٍ إبداعيّة تتضمَّن دلالاتٍ فكريّة، أو تعبيراتٍ جماليّة، أو إلماحات ذكيّة. والالتفات: هو في اللّغة: تحويل الوجه عن أصل وضعه الطبيعيّ إلى وضْعٍ آخر. وفي اصطلاح البلاغيين: هو التحويل في التعبير الكلاميّ من اتجاه إلى آخر من جهات أو طرق الكلام الثلاث: "التكلّم -والخطاب -والغيبة" مع أنّ الظاهر في متابعة الكلام يقتضي الاستمرار على ملازمة التعبير وفق الطريقة المختارة أوّلاً دون التحوّل عنها". أهـ، عبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (ت: ١٤٢٥هـ)، البلاغة العربية، دار القلم، دمشق: الأولى، ١٤١٦ هـ -١٩٩٦م، (١/ ٤٧٨، ٤٧٩).

الفعل؛ لأنَّ نفي الشأن، نفيٌ يحمل معه دليله؛ أي: ليس من شأنك، وأنت الرسول الهادي؛ أن تتخذ المضلين، أعوانًا، وأنصارًا؛ فهذا يُخالف طبعك؛ فما أبعَدَه عن الضلال،والمضلين،ويُخالف وظيفتك :﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[الشورى: ٥٢] .

ويُخالف شريعتك:﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[الممتحنة: ١٣].

عدالة الصحابة[١] ﷺ من دلائل عصمة[٢] النبي ﷺ عن اتخاذ﴿ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾:

هذه القراءة تربط بين عصمة النبي ﷺ، وعدالة الصحابة ﷺ؛ وتجعل تلك العدالة وجهاً من وجوه العصمة النبوية؛ فقد كان الصحابة ﷺ هم أعوان النبي ﷺ، وأنصاره، ومفهوم المخالفة[٣] لمعنى هذه القراءة، يُفيد أن الذين اتخذهم النبي ﷺ أصحابًا، وأنصارًا، وعضدًا؛ كانوا (هُداةً) ولم يكونوا (مضلين)، وهي حقيقة أكدها القرآن الكريم كثيرًا؛فالذين أيد الله بهم رسوله ﷺ كانوا مؤمنين: ﴿...فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٢] وكانوا مفلحين:﴿...فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وكانوا راشدين: ﴿...وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾[الحجرات: ٧] .

وثبات الصحابة على الإيمان، ومؤازرتهم للنبي ﷺ مذكورٌ في التوراة والإنجيل؛ كعلامةٍ من علامات نبي آخر الزمان، ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ

---

(١) العَدَالة في اللغة: الاستقامة، وفي الشرع: عبارةٌ عن الاستقامة على طريق الحق باجتناب ما هو محظورٌ في دينه. السابق (ص: ١٤٤).

(٢) العِصمة: ملكة اجتناب المعاصي مع التمكن منه. أهـ، الجرجاني، التعريفات مرجع سابق. (ص: ١٥٠).

(٣) مفهوم المخالفة: هو ما يُفهم من الكلام بطريق الالتزام. وقيل: هو أن يثبت الحكم في المسكوت على خلاف ما ثبت في المنطوق. ومفهوم الموافقة: هو ما يفهم من الكلام بطريق المطابقة. السابق (ص: ٢٢٤).

عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[الفتح: ٢٩].

والسنة النبوية تُصرح بهداهم ﷺ كما في حديث:"...إياكم ومحدثات الأمور؛ فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم؛ فعليه بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عَضوا عليها بالنواجذ"(١).وجاء في سؤالات هرقل لأبي سفيان: "...وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أنْ لا، وكذلك الإيمان حين تُخالط بشاشته القلوب"(٢).

والسنة النبوية تُصرح بأن الهدايات الكبرى للشعوب بعد وفاة النبي ﷺ؛ كانت على أيدي الصحابةﷺ ثم التابعين وتابعيهم؛ فعن أبي سعيد الخدري ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: " يأتي زمان يغزو فِئَامٌ من الناس، فيقال: فيكم من صحب النبي ﷺ ؟ فيقال: نعم، فَيُفْتَحُ عليه، ثم يأتي زمان، فيقال: فيكم من صحب أصحاب النبي ﷺ ؟ فيقال: نعم، فَيُفْتَحُ، ثم يأتي زمان فيقال: فيكم من صَحِبَ صاحبَ أصحاب النبي ﷺ ؟ فيُقال: نعم، فَيُفْتَحُ "(٣).

فـــ" الحوار الوارد في هذا الحديث.... تصوير لعمل القلوب الكبيرة في العالم، وهو تصوير لأثر تلامذة محمد ﷺ وحوارييه بين الناس، وهو تصوير لاستجابة الشعوب لهم عن محبة، ورضاء وإعجاب. كان أولئك الأصحاب ﷺ مدارس إيمان، ومنارات إرشاد"(٤).

(١) محمد بن عيسى الترمذي، (ت: ٢٧٩هـ) سنن الترمذي تح: أحمد شاكر، وفؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، البابي الحلبي: الثانية، ١٣٩٥ هـ -١٩٧٥ م أبواب: العلم عن رسول الله ﷺ باب: ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع (٥/ ٤٤). حديث رقم:٢٦٧٦. وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح.

(٢) صحيح البخاري (١/ ٩) باب: بدء الوحي. كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ؟

(٣) صحيح البخاري (٤/ ٣٧) ك: الجهاد والسير. ب: من استعان بالضعفاء، والصالحين في الحرب. ح: ٢٨٩٧.

(٤) محمد الغزالي السقا (ت: ١٤١٦ هـ). الحق المر (١/ ٥) (د- ت).

قال الإمام ابن بطال (ت: ٤٤٩هـ): " هو كقوله: في الحديث الآخر "خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم"(١)؛ لأنه يُفتح للصحابة لفضلهم، ثم للتابعين لفضلهم، ثم لتابعيهم لفضلهم قال: ولذلك كان الصلاح، والفضل، والنصر للطبقة الرابعة أقل، فكيف بمن بعدهم؟! والله المستعان"(٢).

وقائع التاريخ، والفتوحات الإسلامية تشهد بهذا:

قال الإمام ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ) -وهو يروي وقائع حروب المرتدين-: "...فقاتلهم الصدِّيق ﷺ بالجنود المحمدية؛ حتى رجعوا إلى دين الله أفواجاً، وعَذُبَ ماءُ الإيمان كما كان، بعد ما صار أُجَاجاً، وقد قال الله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤] . قال المفسرون هم أبو بكر وأصحابه ﷺ"(٣). **قلت:** وتفسير القرآن بالقرآن يُثبت أنهم هم الصحابة ﷺ قال تعالى:﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ... ﴾[الفتح: ٢٩].

يقول الشيخ محمد الغزاليّ (ت: ١٤١٦ هـ): "الواقع أن الإجهاز على الاستعمار الروماني ومحو مظالمه، وظلماته ما كان يقدر عليهما أبدًا إلا هذا الجيل الذي رباه محمد ﷺ ؛ إن القوتين النفسية، والعقلية على المحو، والإثبات انتقلتا من صاحب الرسالة العظمى إلى الرجال الذين تبعوه، فإذا هم يغسلون الأرض من أدرانها لتنشأ عليها أمم من طراز جديد...."(٤). " ...أي أمل لمصر مثلا-وقد ظلت

(١) الحديث في صحيح البخاري ك: الشهادات.ب: لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد. (٣/ ١٧١) ح: ٢٦٥١.
(٢)أحمد بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة -بيروت، ١٣٧٩هـ تح: محمد فؤاد عبد الباقي/محب الدين الخطيب /عبد العزيز بن عبد الله بن باز، (٦/ ٨٩).
(٣) أبو الفداء بن كثير الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي ط: دار هجر. الأولى: ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م، (٩/ ١٦٠).
(٤) علل وأدوية (١٢٣،١٢٤)، محمد الغزالي السقا (ت: ١٤١٦ هـ): دار نهضة مصر (ب ـ ـت).

خمسة قرون مستعمرة رومانية–أن تتحرر وتنجو؟ لكأن وضعها السيء أمسى قدرًا لا فكاك منه! وكذلك كانت الحال على شواطئ البحر المتوسط الذي احتلت أقطاره كلها أعصارًا مُتَطَاولة، وتحوّل إلى بحيرة رومانية. بَيْدَ أن أصحاب محمد ﷺ وحدهم هم الذين كسروا أبواب السجن، وقالوا للمسجونين المشدوهين: اذهبوا فأنتم الطلقاء. إن الذي وقع كان معجزة حقيقية، ولم يكن يستطيعها إلا أصحاب محمد ﷺ وحدهم!؛ ذلك لأنهم أسلموا لله وجوههم، ...وتأثروا بخطوات نبيهم، وهو يُعطى ولا يأخذ، ويُحيى ولا يميت، وينشد الآخرة، ويستعلى على العاجلة، وهذا النوع من الدعاة هو الذي يُغير وجه العالم، وقد استشهد ربع الصحابة ﷺ مع المدّ الإسلامي! ومن بقي منهم وقف حياته لنشر الإسلام بالخُلق، والعبادة، والتعليم، والأسوة الحسنة! أي: أن مَنْ مات مات لله، ومن طال عمره عاش لله، وكانت النتائج أمرًا عجبًا، إن الأمم التي أسلمت لم تتخل عن كفرها فقط، بل تحولت خلقًا آخر! خلقا يقول للفاتحين: إذا تراخيتم فسنتولى نحن الدعوة، ونرفع الشعلة! إن هذا الخير الجمّ، والأثر الواسع انبجس من فؤاد واحد، فؤاد صاحب الرسالة الخاتمة! "[١].

أثر هذه القراءة في بيان السيرة النبوية الشريفة:

السيرة النبوية في جانب كبيرٍ منها، هي بيانٌ، لتصرفات الصحابة ﷺ ، في العهد النبوي، وإقرار النبيّ ﷺ لها، وهذه القراءة ﴿وَمَا كُنْتَ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ تُلقى الثقة في قلب المؤمن، تجاه الصحابة الكرامﷺ، وما كانوا عليه من هدى، وصلاح، وهي نصٌ في هدم كل الشبه التي أثارها الشيعة[٢] حول الخلفاء الراشدين، وسائر الصحابة ﷺ ؛ فما كان من شأنه ﷺ، ولا من طبعه ﷺ، ولا من

(١) محمد الغزالي السقا (ت: ١٤١٦ هـ)، الحق المر، مرجع سابق (١/ ٤).

(٢) الشيعة: هم الذين شايعوا عليًّا ﷺ، قالوا: إنه الإمام بعد رسول الله ﷺ، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عنه وعن أولاده.أهـ الجرجاني، التعريفات، مرجع سابق. (ص: ١٢٩) وقد بنوا مذهبهم، على تكفر الصحابة ﷺ ، ومن أفضل ما كتب في الرد عليهم، ما كتبه العلامة أبو الحسن الندوي، حيث خصص أحد كتبه القيمة، لهذه المسألة الخطيرة، سماه: (صورتان متضادتان عند أهل السنة، والشيعة الإمامية). هدية مجلة الأزهر لشهر رمضان ١٤٣٣هـ.

شرعه ﷺ أن يتخذ المضلين عضداً، بل كان عضده، ونصيره من البشر الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وهذه القراءة ﴿ وَمَا كُنْتَ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾هي بمثابة النبوءة لانتشار الهدى على أيدي الصحابة ﷺ في ربوع العالم شرقا وغرباً. ومن أبرز مظاهر نبوته ﷺ عبادة خاصة جمعت بين النبي ﷺ ، والقرآن قال تعالى:﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾[الإسراء: ٧٩]، وهذا موضوع المبحث التالي.

المبحثُ السادس

ناشئة الليل، وأثرها في تثبيت فؤاد النبي ﷺ

الآية الكريمة:﴿ ...إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾[المزمل: ٦].

التفسير: "﴿ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ ﴾الْقِيَام بَعْد النَّوْم﴿ أَشَدُّ وَطْئًا ﴾ مُوَافَقَة السَّمْع لِلْقَلْبِ عَلَى تَفَهُّم الْقُرْآن﴿ وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾أَبْيَن قَوْلًا"(١).

القرآن وتثبيت قلب النبيّ ﷺ: ارتبط القرآن الكريم بتثبت فؤاد النبي ﷺ نزولاً وترتيلاً؛ أما ارتباطه بتثبيت فؤاد النبي ﷺ نزولاً، فهو ما جاء في قوله تعالى:﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾[الفرقان: ٣٢]. وأما ارتباطه بتثبيت فؤاد النبي ﷺ ترتيلاً، فهو ما جاء في قوله تعالى:﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾[المزمل: ٤-٦]. وموضوع الدراسة الآن، هو عن تثبيت قلب النبي ﷺ بالقرآن (ترتيلاً)؛ وذلك أن الله ﷻ ذكر، أن ترتيل القرآن الكريم، في صلاة الليل، أشدُّ تثبيتاً للقلب، وأنفذ لمعاني القرآن الكريم في النفس، وأقوم في الفهم والتدبر؛ فآيات سورة المزمل، تُصور تفاعلاً بين أربعة عناصر هي: (الفعل: ويتمثل في ترتيل القرآن في الصلاة)، و(الزمن: ويتمثل في الليل)، و(الإنسان: ويتمثل في النبي ﷺ)، و(الأثر: ويتمثل في:﴿ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾، ولا يزال هذا التفاعل متاحًا، لمن اتخذ النبي ﷺ أسوة له. وموطن الشاهد هنا، هو كلمة﴿ وَطْئًا ﴾؛ فقد وردت بقراءتين، تُصوران جانباً من أثر ترتيل القرآن الكريم في صلاة الليل على القلب الإنساني، وفي مقدمتها، قلب النبي ﷺ الذي نزل عليه جبريلعليه السلام بالقرآن الكريم:﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ

(١) جلال الدين المحلي، جلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين، مرجع سابق، (ص: ٧٧٣).

(١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾[الشعراء: ١٩٢-١٩٤]، وحان موعد النظر في هاتين القراءتين، وما تحملانه من دلالات.

القراءات: قرأ الجمهور (وَطْئًا) بفتح الواو، وإسكان الطاء من غير مد. وقرأ أبو عمرو، وابن عامر (وِطَاءً) بكسر الواو، وفتح الطاء وألف ممدودة بعدها.(١).

التوجيه:

قراءة (وَطْئًا) بفتح الواو: من الوطء بالأقدام؛ والمعنى أن صلاة الليل أشد على البدن، وأصعب؛ لأنها تخالف عادة الإنسان، في الحركة، والتقلب في النهار، ولم يعتد ذلك بالليل، بل اعتاد الراحة فيه؛ فقد جعل الله الليل للسكن والراحة؛ فقيامه في الليل، أشد عليه، وأصعب على بدنه. ولأن المرء بالنهار، ليس ينتصب قائمًا في مكان واحد، فيمكث فيه كذلك؛ بل ينتقل من موضع إلى موضع، ولو كُلف الانتصاب في مكان اشتد عليه ذلك، ولحقه الكلال، والعناء من ذلك(٢).

قراءة (وِطَاءً) بالمد: "من المواطأة، وهي الموافقة، أي: موافق للسمع، والبصر، والفؤاد؛ لأن القلب يكون أفرغ بالليالي، عن الأشغال التي تحول المرء عن الوصول إلى حقيقة دَرْك معاني الأشياء، وكذلك السمع، والبصر يكون أحفظ للقرآن، وأشد إدراكا لمعانيه؛ فالقراءة بالليل يتواطـــأ فيها قلب المصلي، ولسانه، وسمعه؛ تفهماً، وأداءً، ما لا يتواطئن عليه بالنهار(٣).

العلاقة بين القراءتين: إذا كانت ناشئة الليل﴿ أَشَدُّ وَطْئًا ﴾أي: ثقيلة الوطأة على البدن؛ فإن فوائدها تستحق تحمل ذلك الثقل؛ لأنها﴿ أَشَدُّ وِطَاءً﴾ فما يُرتله اللسان من القرآن الكريم في صلاة الليل، يُوافق سمعاً منصتاً، وقلباً مستعداً، وهمة مجتمعة، وعقلا متأملاً؛ فتتفتح في القلب أزهار الإيمان، ويجري في النفس نهر

(١) شمس الدين ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، مرجع سابق (٢/ ٣٩٣).
(٢) أبو منصور الماتريدي، تأويلات أهل السنة مرجع سابق. (١٠/ ٢٧٤) بتصرف كبير.
(٣) محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (ت: ٣٧٠هـ)، معاني القراءات، مركز البحوث في كلية الآداب -جامعة الملك سعود: الأولى، ١٤١٢ هـ -١٩٩١ م. (٣/ ٩٩).

اليقين. ومن عادة القران الكريم الربط بين جهد البدن، وهيئته الاختيارية، وبين ما يُصاحب تلك الهيئة من تأثر نفسي وقلبي(١).

فقراءة:﴿ أَشَدُّ وَطْئًا ﴾تُصور الجهد البدني الخاص لصلاة الليل. **وقراءة:﴿** أَشَدُّ وِطَاءً ﴾، تصور الأثر القلبي، والنفسي لصلاة الليل بزمانها المميز، وجهدها البدني الخاص، كما أنَّ قوله تعالى:﴿ وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾يُصور الأثر التعليمي لصلاة الليل.

نتيجة: هكذا يُثمر تعدد القراءات، مثل تلك المعاني اللطيفة الشريفة، الدالة على إعجاز القرآن الكريم في إيجازه؛ فكلمة واحدة قرئت بقراءتين، سارت كل قراءة منهما بمعنى الآية في سياق خاص بها، مع تعاون السياقين على تحقيق الهدف الكلي لمقصد الآية؛ وهو بيان أهمية ناشئة الليل في حياة النبي ﷺ، وتصوير جانب من عبادة النبي ﷺ لربه ﷻ؛ لتراها أمته فتزداد محبته في قلوبهم، وحرصهم على الاقتداء به، ويتعلموا أن القرب من الملأ الأعلى لا يتأتى مع حياة الترف والغفلة. والله تعالى أعلم.

أثر القراءتين في بيان السيرة النبوية الشريفة:

صورت لنا القراءتان صورة النبي ﷺ؛ العابد، المرتل للقرآن ترتيلاً، في صلاة الليل، وأثر هذه العبادة في بدنه، وقلبه؛ أما أثرها في بدنه؛ فهي شديدة الوطأة، والثقل؛ فهي قيام في زمن جُعل للراحة والنوم. وأما أثرها في قلبه الشريف؛ فهي شديدة المواطأة، والموافقة للتأثر بالقرآن الكريم.

وفي ذكر القرآن الكريم لتكاليف النبوة الثقيلة وأعباء الرسالة العظيمة ما يبعث الحمية في نفوس المؤمنين لتوقير النبي الكريم ﷺ وهذا هو موضوع المبحث التالي:

---

(١) يقول الإمام الغزالي: كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح؛ حتى لا تتحرك إلا على وفقها لا محالة، وكل فعل يجري على الجوارح، فإنه قد يرتفع منه أثر إلى القلب، والأمر فيه دورٌ". أبو حامد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ)، إحياء علوم الدين (٣/ ٥٩)، دار المعرفة – بيروت.

المبحثُ السابع

وجوبُ توقيرِ النبي ﷺ من المؤمنين.

الآية الكريمة:﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[الحجرات: ١].

التفسير: "يا أيها الذين أقرّوا بوحدانية الله، وبنبوّة نبيه محمد ﷺ ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ يقول: لا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم، أو دينكم، قبل أن يقضي الله لكم فيه، ورسوله، فتقضوا بخلاف أمر الله، وأمر رسوله، يُقال: فلان يقدّم بين يدي إمامه؛ بمعنى يعجل بالأمر، والنهي دونه"(١).

القراءات: قرأ يعقوب: "لَا تَقَدَّمُوا" بفتح التاء، والدال، من التَّقَدُّمِ؛ أي: لا تَتَقَدَّمُوا، وقرأ الجمهور بضم التاء، وَكَسْرِ الدَّالِ، مِنَ التَّقْدِيمِ(٢).

التوجيه:

قراءة يعقوب: تُفيد النهي عن التقدم بين يدي رسول الله ﷺ بفعلٍ، كالمشي، وغيره من الأفعال.

قراءة الجمهور: تُفيد العموم في النهي عن التقدم في الأقوال، والأفعال؛ فالفعل (تُقدموا) على هذه القراءة، فعل متعدٍ حُذِف مفعوله؛ لإفادة العموم. قال الإمام ابن العربي (ت: ٥٤٣ هـ) قوله تعالى :﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾[الحجرات: ١]:"أصلٌ في ترك التعرض لأقوال النبي ﷺ، وإيجاب اتباعه، والاقتداء به"(٣).

---

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، (٢٢/ ٢٧٢) بتصرف.

(٢) شمس الدين ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، مرجع سابق (٢/ ٣٧٥). والبنا الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، مرجع سابق (ص: ٥١٢).

(٣) أبو بكر بن العربي المالكي (ت: ٥٤٣ هـ)، أحكام القرآن، تح: علي محمد البجاوي، دار إحياء الثراث العربي بيروت، الأولى (٤/ ١٣١)، (ب -ت).

أثر القراءتين في بيان السيرة النبوية الشريفة:

تُفيد القراءتان أن علاقة الصحابة ﷺ بالنبي ﷺ، كانت محل نظر الوحي الإلهي، وتوجيهه الدائم سواء في ذلك أفعالهم، أو أقوالهم، وهي منزلة جليلة؛ جعلت من حياتهم مرآة للوحي، وميداناً لأوامره، ونواهيه، لذلك كانوا هم أعلم الناس بالوحي قرآناً، وسنة.

وإذا كان الناس انقسموا أمام دعوة النبي ﷺ إلى مؤمنين بها؛ وهم: (أمة الإجابة)، وكافرين بها وهم: (أمة الدعوة)، وقد كشفت القراءات الواردة في المباحث السبعة السابقة، معالم من السيرة الشريفة تتعلق بـــ (أمة الإجابة)، وننتقل في المباحث السبع الآتية إلى قراءات تتعلق بمعالم من السيرة الشريفة تخص (أمة الدعوة).

المبحث الثامن

استغاثةُ النبي ﷺ بربه ﷻ ، وتوجعه؛ من عدم إيمان قومه

الآية الكريمة:﴿ وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[الزخرف: ٨٨].

التفسير: "وقال النبيّ محمد ﷺ قيله شاكيًا إلى ربه -تبارك وتعالى-قومه الذين كذّبوه، وما يلقى منهم: يا ربّ إن هؤلاء الذين أمرتني بإنذارهم، وأرسلتني إليهم لدعائهم إليك، قوم لا يؤمنون"(١).

و(القِيل) مصدر (قَالَ)، والأظهر أنه اسم مراد به المفعول، أي: (المقول) مثل (الذِبْح) بمعنى (المذبوح)، قال تعالى:﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾[الصافات: ١٠٧] أي: (مذبوح) عظيم. ولفظ (قيله) من فرائد مفردات القرآن فلم يرد في غير هذا الموضع، و(قِيلَ) مضاف، و(الهاء) في (قيله) ضمير مضاف إليه، وهو من إضافة المصدر لفاعله، وهذا الضمير يُقصد به النبي ﷺ، وسياق الآيات يدل أنه جرى الالتفات من الخطاب إلى الغيبة فقوله تعالى:﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أسلوبُ خطابٍ جرى الالتفات منه إلى أسلوب الغيبة في قوله:﴿وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وحَسَّنَ هذا الالتفات؛ أنه حكاية لشيءٍ في نفس الرسولﷺ؛ فجعل الرسولﷺ بمنزلة الغائب؛ لإظهار أن الله لا يُهمل نداءه، وشكواه، وإضافة القيل إلى ضمير الرسولﷺ مُشعرة بأنه تكرر منه، وعُرف به عند ربه، أي عُرف بهذا. وهو من استعمال الخبر في التحسر، أو الشكاية، وهو خبر بمعنى الإنشاء، مثل قوله تعالى:﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾[الفرقان: ٣٠] (٢).

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، (٢١/ ٦٥٦) بتصرف.
(٢) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، (٢٥/ ٢٧١).

القراءات: قرأ الجمهور﴿ وَقِيلَهُ﴾ بنصب اللام وضم الهاء. وقرأ عاصم وحمزة﴿ وَقِيلِهِ ﴾ بخفض اللام، وكسر الهاء(١).

التوجيه:

قراءة الجمهور:﴿ وَقِيلَهُ ﴾بالنصب، لها وجهان:

الأول: العطف على قوله تعالى:﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ [الزخرف: ٨٠]، أي: ونسمع قِيلَهُ: يا رب(٢).

الثاني: أن يُضمر له ناصب، فيكون معناه حينئذ: وقال قوله:﴿ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾، أي: وشكا النبي ﷺ شكواه إلى ربه(٣).

قراءة عاصم وحمزة:﴿ وَقِيلِهِ ﴾بالخفض، لها وجهان:

الأول: أن يكون عطفاً على الساعة في قوله تعالى:﴿ وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ... ﴾[الزخرف: ٨٥] أي: وعلم قِيلِ الرسول: يا رب، وهو على هذا، وعدٌ للرسول ﷺ بالنصر، وتهديدٌ لهم بالانتقام.

الثاني: أن تكون الواو للقسم، ويكون جواب القسم جملة﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[الزخرف: ٨٨] على أن الله أقسم بقول الرسولﷺ:﴿ يَارَبِّ ﴾، تعظيماً للرسولﷺ، ولقيله الذي هو تفويض للرب، وثقة به. ومقول قيله هو يا رب فقط، أي أقسم بنداءِ الرسولﷺ ربَه نداء مضطر.(٤)، وقد حُذف بعد النداء، ما نُودي لأجله، مما دل عليه مقام مَنْ أعيته الحيلة فيهم؛ ففوض أمره إلى ربه؛ فأقسم اللهُ بتلك الكلمة على أنهم لا يؤمنون، ولكن الله سينتقم منهم، فلذلك قال:﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[الزخرف: ٨٩] (٥). والإشارة بـــ(هؤلاء) إلى المشركين من أهل مكة،

(١) ابن مجاهد، السبعة في القراءات، مرجع سابق، (ص: ٥٨٩).
(٢) ابن جرير الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، (٢١/ ٦٥٦).
(٣) ابن جرير الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، (٢١/ ٦٥٦) بتصرف.
(٤) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، (٢٥/ ٢٧٣).
(٥) ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[الزخرف: ٨٩] قرأ المدنيان، وابن عامر بالخطاب، وقرأ الباقون بالغيب. أهـ، شمس الدين بن الجزري، النشر في القراءات العشر مرجع سابق، (٢/ ٣٧٠).

كما هي عادة القرآن غالبا، ووصفهم بأنهم قوم لا يؤمنون، أدل على تمكن عدم الإيمان منهم، مِنْ أنْ يقول: هؤلاء لا يؤمنون[1].

أثر القراءتين في بيان السيرة النبوية:

تَجمع القراءتان، بين معنيين متلازمين، حفلت بهما الفترة المكية.

الأول: شكوى النبي ﷺ إلى ربه ﷻ إصرار قومه على الكفر وصدهم عن سبيل الله؛ شفقة عليهم.

الثاني: مواساة النبي ﷺ من ربه ﷻ ، وتكرار الوعيد لقومه بسبب إصرارهم على الكفر.

(١) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق (٢٥/ ٢٧٣).

المبحث التاسع

عجبُ النبيّ ﷺ من عدم إيمان قومه

الآية الكريمة:﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) ﴾[الصافات: ١٢].

التفسير:"﴿ بَلْ ﴾للانتقال مِنْ غَرَضٍ إِلَى آخَر، وَهُوَ الْإِخْبَار بِحَالِهِ، وَحَالهمْ﴿ عَجِبْتَ ﴾بِفَتْحِ التَّاء خِطَابًا لِلنَّبِيِّ ﷺ؛ أَيْ: مِنْ تكذيبهم إياك﴿ وَ ﴾هم﴿ وَيَسْخَرُونَ﴾ من تعجبك"(١).

القراءات: قرأ حمزة، والكسائي، وخلف﴿ عَجِبْتُ ﴾بضم التاء، والباقون﴿ عَجِبْتَ ﴾ بفتحها(٢).

التوجيه:

قراءة:﴿ بَلْ عَجِبْتُ ﴾: بضم التاء، بمعنى: بل عظم عندي، وكبر اتخاذهم لي شريكا، وتكذيبهم تنزيلي، وهم يسخرون. وفاعل التعجب على هذه القراءة هو الله سبحانه وتعالى(٣).

وقراءة:﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾: بفتح التاء بمعنى: بل عجبتَ أنت أيها النبيّ، ويسخرون من هذا القرآن. وفاعل التعجب في هذه القراءة هو النبيّ ﷺ.(٤)

العلاقة بين القراءتين:

قال الإمام الطبري(ت:٣١٠هـ):"الصواب من القول في ذلك، أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان في قراء الأمصار، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب. فإن قال قائل: وكيف يكون مصيبًا القارئ بهما مع اختلاف معنييهما؟ قيل: إنهما وإن اختلف معنيهما، فكل واحد من معنييه صحيح، قد عجب النبيﷺ مما أعطاه الله من الفضل،

(١) جلال الدين المحلي، جلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين، مرجع سابق، (ص: ٥٨٨).
(٢) شمس الدين بن الجزري، النشر في القراءات العشر، مرجع سابق، (٢/ ٣٥٦).
(٣) ابن جرير لطبري، جامع البيان (٢١/ ٢٢). مرجع سابق.
(٤) السابق نفسه. بتصرف.

وسخر منه أهل الشرك بالله، وقد عجب ربنا ﷻ من عظيم ما قاله المشركون في الله، وسَخِر المشركون بما قالوه. فإن قال: أكان التنزيل بإحداهما أو بكلتيهما؟ قيل: التنزيل بكلتيهما. فإن قال: وكيف يكون تنزيل حرف مرتين؟ قيل: إنه لم ينزل مرتين، إنما أنزل مرة، ولكنه أُمِرَ ﷺ أَنْ يقرأ بالقراءتين كلتيهما، ... فعلى القراءة الأولى إثبات صفة العجب لله تعالى، وعلى القراءة الثانية فالذي تعجب هو النبي ﷺ، فاختلف الفاعل على القراءتين"[1].

أثر القراءتين في بيان السيرة النبوية:

تشير قراءة﴿ بَلْ عَجِبْتُ ﴾: بالضم إلى ما كان عليه أهل مكة من عقائد باطلة؛ فقد ملأوا بيت الله الحرام بالأصنام، وذبحوا لها القرابين، وأكثروا من اتخاذ الآلهة الباطلة، وهم يسخرون من دعوة النبيﷺ إلى التوحيد، والإيمان بالبعث. فعجب الله من حالهم يُدعون إلى الحق والنجاة، فيندفعون نحو الباطل، والهلاك.

وتُشير قراءة﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾: بالفتح إلى أن النبي ﷺ واجه من قومه من الأفعال، والأقوال ما يدعوه للعجب؛ فهوﷺ يدعوهم إلى الجنة، وهم يدعونهﷺ إلى النار.

(١) ابن جرير لطبري، جامع البيان (٢١/ ٢٢).

المبحثُ العاشر

ثباتُ النبي ﷺ العظيم أمام أعاصير المكر

الآية الكريمة:﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾[إبراهيم: ٤٦].

التفسير:﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ﴾أي: هو عالمٌ بما يُخفونه من الشر، وما يُضْمرونهُ من السوء، والأذى للمؤمنين؛ فيجازيهم عليه﴿ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾أي: وإن كان مكرهم شديداً عظيماً؛ تبلغ قوته أن تزول منه الجبال؛ فإن الله تعالى قادر على إبطاله ومحوه، ومقابلته بمكر هو أشد وأقوى منه(١).

القراءات: قرأ الجمهور:﴿ لِتَزُولَ﴾ بكسر اللام الأولى، ونصب الثانية. وقرأ الكسائي(لَتزولُ) بفتح اللام الأولى ورفع الثانية (٢).

التوجيه:

قراءة الجمهور﴿ لِتَزُولَ ﴾(إِنْ) نافية، ولام﴿ لِتَزُولَ﴾ لام الجحود(٣)، والفعل المضارع (تزول) منصوب بأن مضمرة، والمعنى على هذه القراءة: " وما كان مكرهم زائلة منه الجبال، وهو استخفاف بهم، أي: ليس مكرهم بمتجاوز مكر أمثالهم، وما هو بالذي تزول منه الجبال. وفي هذا تعريضٌ بأن الرسول ﷺ ، والمسلمين الذين يريد المشركون المكر بهم؛ لا يُزعزعهم مكرهم؛ لأنهم كالجبال الرواسي"(٤). "ويدل على صحة هذا المعنى قوله بعدُ:﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ

(١) محمد بن الخطيب (ت: ١٤٠٢هـ)، أوضح التفاسير، المطبعة المصرية،١٣٨٣ هـ، فبراير ١٩٦٤ (١/ ٣١١).

(٢) شمس الدين بن الجزري، النشر في القراءات العشر مرجع سابق. (٢/ ٣٠٠).

(٣) لام الجحود: لام تتصل بالفعل المضارع، فتنصبه بأن مضمرة (مقدرة) بعدها، ويشترط في لام الجحود أن تكون مسبوقة ب (كون منفي)، نحو: ما كان، لم يكن. والجحود يعني النفي والإنكار، وهذه اللام تؤكد النفي الواقع على الفعل الناقص.أهـ ظاهر شوكت البياتي ط: مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان: الأولى، ١٤٢٥ هـ -٢٠٠٥ م. (ص: ١٨١).

(٤) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، (١٣/ ٢٥٠).

رُسُلَهُ ﴾[إبراهيم: ٤٧] أي: فقد وعدك الظهور عليهم، والغلبة لهم، ومعنى الآية: وما كان مكرهم ليزول منه ما هو مثلُ الجبال–في امتناعه–ممن أراد إزالته"[١].

قراءة الكسائي:﴿ لَتَزُولُ﴾(إنْ) مخففة من (إنَّ) المؤكدة، واللام في:﴿ لَتَزُولُ ﴾ فارقة[٢] بينها، وبين النافية، والمعنى على هذه القراءة: أن فيها " إثباتًا لزوال الجبال من مكرهم، أي هو مكر عظيم لَتَزُولُ منه الجبال، لو كان لها أن تزول، أي جديرة، فهو مستعمل في معنى الجدارة، والتأهل للزوال لو كانت زائلة. وهذا من المبالغة في حصول أمر شنيعٍ، أو شديدٍ في نوعه على نحو قوله تعالى:﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾[مريم: ٩٠] [٣]. "والمعنى: قد كانت الجبال تزول من مكرهم على تعظيم أمر مكرهم؛ كقوله تعالى:﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾[نوح: ٢٢] .... فإن قيل هذه القراءة على ما ذكرتم يُوجب أن الجبال قد زالت بمكرهم، وهل كان ذلك؟ والجواب أن هذا مبالغة في وصف مكرهم بالعظيم، وإن لم يكن جبلٌ قط زال لمكرهم؛ فهذا على مذهب العرب في المبالغة؛ ...كأنه قيل: لو أزال مكرُهم الجبال لما أزال أمرَ الإسلام"[٤].

أثر القراءتين في بيان السيرة النبوية:

القراءتان تُلخصان قصة صراع الحق، والباطل في السيرة الشريفة؛ فقد كان الحق ممثلاً في أهله من النبي ﷺ، وأصحابه الكرام ﷺ ثابتاً أمام مكر المشركين، وكيدهم، ثبوت الجبال، لا تُؤثر فيه الرياح، والأعاصير، وإن اشتدت، وكان الباطل ممثلاً في صناديد الكفر كالوليد بن المغيرة، وأبي جهل، وأبي لهب، وأمثالهم،

(١) أبو الحسن الواحدي (ت: ٤٦٨هـ)، التفسير البسيط (١٢/ ٥٠٦). تح: (١٥) رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه.

(٢) هذه اللام تسمى: "الفارقة"؛ لأنها التي تفرق بين: إن "المشددة العاملة، والمخففة المهملة.أهـ عباس حسن (ت: ١٣٩٨هـ) النحو الوافي (١/ ٢٧٩)، دار المعارف: الخامسة عشرة. (د-ت).

(٣) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق (١٣/ ٢٥٠) .

(٤) أبو الحسن الواحدي، التفسير البسيط، مرجع سابق (١٢/ ٥٠٩-٥٠٨) باختصار، وتصرف.

وأتباعهم، يشتدون في مكرهم، وعداوتهم؛ بحيث إنها بلغت من قوتها وإحكام أمرها؛ أنها لو كانت ريحًا، لكادت من شدتها، أن تُزيل الجبال عن أماكنها، فلو كان مكرٌ يزيل الجبال لشدته، لكان مكرهم، ولكن قضت حكمة الله ﷻ أن الجبال أقوى، وأشد ثباتاً. قال تعالى:﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥٠-٥١] .

المبحث الحادي عشر

حدود مسؤولية الرسول ﷺ عن إيمان الناس وأعمالهم

الآية الكريمة:﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ [البقرة: ١١٩].

التفسير: "وقد أرسلناك بحقائق يقينية، بشيراً للمؤمنين، ونذيراً للكافرين، وليس عليك إلا تبليغ رسالتنا، ولن تُسأل عن عدم إيمان من لم يؤمن بك من أصحاب الجحيم"(١).

القراءات: قرأ نافع، ويعقوب﴿ وَلَا تَسْأَلْ ﴾بفتح التاء، وجزم اللام على النهي بالبناء للفاعل. وقرأ الباقون﴿ وَلَا تُسْأَلُ ﴾بضم التاء، والرفع على الخبر (٢).

التوجيه:

قراءة نافع ، ويعقوب:﴿ وَلَا تَسْأَلْ ﴾: " السؤال هنا مستعمل في الاهتمام والتطلع إلى معرفة الحال؛ مجازاً مرسلاً، بعلاقة اللزوم(٣)؛ لأن المَعْنِيَّ بالشيء، المُتَطَلِّعَ لمعرفة أحواله، يُكْثِرُ من السؤال عنه. أو هو كناية عن فظاعة أحوال المشركين، والكافرين؛ حتى إن المُتفكر في مصير حالهم يُنْهَى عن الاشتغال بذلك؛ لأنها أحوالٌ لا يُحيط بها الوصف، ولا يبلغ إلى كنهها العقل؛ في فظاعتها، وشناعتها؛ وذلك أن النهي عن السؤال يَرِدُ لمعنى تعظيم أمر المسئول عنه."(٤).

---

(١) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية -مصر: الثامنة عشرة، ١٤١٦ هـ -١٩٩٥ م. (ص: ٢٧).

(٢) شمس الدين ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، مرجع سابق (٢/ ٢٢١).

(٣) المجاز المرسل هو: "الكلمة المستعملة في غير المعنى الذي وضعت له؛ لعلاقة غير المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الموضوعة له" أهـ. حامد عوني، المنهاج الواضح للبلاغة، المكتبة الأزهرية للتراث. (١/ ١٣٣).

(٤) قال العلامة الطاهر ابن عاشور: "...وما قيل إن الآية نزلت في نهيه ﷺ عن السؤال عن حال أبويه في الآخرة فهو استناد لرواية واهية ولو صحت لكان حمل الآية على ذلك مجافياً للبلاغة؛ إذ قد علمت أن قوله:﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ تأنيس وتسكين؛ فالإتيان معه بما يذكر المكدرات خروج عن الغرض وهو مما يُعبر عنه بفساد

قراءة الباقين ﴿ وَلَا تُسْأَلُ ﴾:على أن (لا) نافية، أي: لا يسألك الله عن أصحاب الجحيم، وهو تقرير لمضمون، إنا أرسلناك بالحق. والسؤال كناية[١] عن المؤاخذة، واللوم...أي: لست مؤاخذاً ببقاء الكافرين على كفرهم؛ بعد أن بلَّغتَ لهم الدعوة"[٢].

وهذه القراءة تُقررُ، معنى قاعدةٍ هامة، جرى تأكيدها كثيراً في القرآن والسنة، هذه القاعدة -كما لخصها العلامة محمد عبد الله دراز (ت: ١٣٧٧هـ) -هي أن: " المسئولية الأخلاقية، والدينية شخصية محضة، وأن الثواب والعقاب لا يُمكن أن يتأتى فيهما أي تحويل، أو امتداد، أو اشتراك، أو التباس"[٣]. قال تعالى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ [يونس: ١٠٨] ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء: ١٥] .

أثر القراءتين في بيان السيرة النبوية:

تُبرز القراءتان العلاقة بين الرسول ﷺ وبين من أصر على كفره، ومات كافراً. أما قراءة:﴿ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ بضم التاء؛ فتُبين أن النبي ﷺ بأدائه مهمة البلاغ؛ قد أدى ما عليه، فلن يُسأل عن سبب كفر هؤلاء كما يُفيده قوله تعالى:﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٢٠] . وهذه القراءة تُشير إلى تسلية النبي ﷺ بسبب شعوره بالحزن من كُفر من كُفر، وهو ما تم

الوضع". الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق (١/ ٦٩٢). والبنا الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، مرجع سابق. (ص: ١٩١).

(١) الكناية: "لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ". أهـ. عبد المتعال الصعيدي (ت: ١٣٩١هـ)، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، السابعة عشر: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م. (٣/ ٥٣٨).

(٢) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق (١/ ٦٩٢). والبنا الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر مرجع سابق. (ص: ١٩١).

(٣) محمد بن عبد الله دراز (ت:١٣٧٧هـ)، دستور الأخلاق في القرآن، مؤسسة الرسالة: العاشرة ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م. (ص: ١٤٨).

التصريح به في آيات مثل قوله تعالى:﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾[فاطر: ٨] وأما قراءة:﴿ وَلَا تَسْأَلْ ﴾ بفتح التاء؛ فهي تُبين بشرية الرسول ﷺ، وأن مصير الناس، وحسابهم في الآخرة بيد الله ﷻ وحده. كما تحمل وعيداً للكافرين؛ فحالهم في العذاب الشديد لا يُسأل عنه لشدته، وهوله، وتحمل في ذات الوقت تأنيسٌ للنبي ﷺ، وأنه أدى ما عليه من البلاغ.

المبحثُ الثاني عشر

لماذا لم يُؤمن الكفار بدعوة الرسول ﷺ، مع كمالها، وحسن بلاغها؟

الآية الكريمة:﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾[النمل: ٨٠].

التفسير: "إنك يا رسول الله لا تقدر أن تُفْهِمَ الحقَ من طَبَعَ اللهُ على قلبه فأماته، ولا تقدر أن تُسمع ذلك من أَصَمّ الله سمعه﴿ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ أي: إذا هم أدبروا معرضين عنه، فأما قراءة ابن كثير " ولا يَسمعُ " بالياء " الصمُ " بالرفع، فمعناها: ليس يسمع الصم الدعاء في حال إعراضهم، وتوليتهم عنه."(١). "وإنما نُسبوا إلى الصمم لأن الرسول –عليه السّلام–لما وعظهم، فتكبّروا عن الوعظ، ومجّته آذانهم، ولم ينجح فيهم، كانوا بمنزلة من لم يسمع"(٢).

القراءات: قرأ الجمهور: بتاء مضمومة مع كسر الميم، ونصب ميم الصم (وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ) .

وقرأ ابن كثير: (يَسْمَعُ) بياء مفتوحة مع فتح الميم، ورفع ميم الصم (وَلَا يَسْمِعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ)(٣).

التوجيه:

قراءة:﴿ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ ﴾على جهة إسناد الفعل إلى المخاطب وهو النبي ﷺ أي: "إِنَّك لَا تُسمعهم كَمَا لم يُسمعهم الله؛ فَالْمَعْنى أَنهم لفرط إعراضهم عَمَّا يُدعونَ إِلَيْهِ من التَّوْحِيد كالميت الَّذِي لَا سَبِيل إِلَى إسماعه، وإعلامه شَيْئا كالصم"(٤).

---

(١) مكي بن أبي طالب **(ت ٤٣٧هـ)** الهداية إلى بلوغ النهاية. مرجع سابق، (٨/ ٥٤٦٤) بتصرف.

(٢) الحسين بن خالويه، الحجة في القراءات السبع (ت: ٣٧٠هـ) تح: د. عبد العال سالم مكرم، جامعة الكويت، دار الشروق، بيروت: الرابعة، ١٤٠١ هـ، (ص: ٢٧٤).

(٣) عبد الفتاح بن عبد الغني القاضي (ت: ١٤٠٣هـ)، البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، دار الكتاب العربي، بيروت –لبنان. (ص: ٢٣٨).

(٤) ابن زنجلة، حجة القراءات، مرجع سابق، (ص: ٥٣٦).

قراءة:﴿ وَلَا يَسْمِعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ ﴾: " بِالرَّفْع جعلهم الفاعلين أَي لَا ينقادون للحق لعنادهم كَمَا لَا يسمع الْأَصَم مَا يُقَال لَهُ"(١)."

وفي هذه القراءة: إبرازٌ لتشبيه الكفار بالصم؛ من حيث إنهم لا يُصيخون للحق، ولا يقبلونه، وكذلك الأصم لا يسمع ما يقال له، فهو في إعراضه عما يقال له قد ألقى بسمعه جانباً؛ فلم يعد ينتفع به، وهذا غاية امتناع عن سماع ما يقال له. وتجري هذه القراءة على أسلوب التشبيه الضمني؛ الذي يُترك للمخاطب فيه، تعيين المشبه، والمشبه به، ووجه الشبه، ولا يخفى ما في هذا الأسلوب، من إثارة ذهنه؛ لإدراك المقاصد من هذا التشبيه، وعناصره. وفي هذه القراءة تحذير للمعرضين أن يكونوا كالأصم الذي لا يسمع، وفيها كذلك التفات من الخطاب إلى الغائب، إذ بدأت بخطاب النبي ﷺ ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾، ثم التفت إليهم بقوله:﴿ وَلَا يَسْمِعُ الصُّمُّ ﴾ والمعنى: أنهم لا ينقادون للحق لعنادهم، وفرط ذهابهم عنه، كما لا يسمع الأصم ما يقال له. وتؤول القراءتان إلى معنى واحد، يعرضه السياق القرآني عرضًا حيًا على طريقة التشخيص، ولكن يحقق اختلافهما تعدد الأساليب في عرض المعنى المنشود، وبروز أوجه بلاغية جديدة في الالتفات، والتشبيه الضمني، ومهما ارتقى البيان البشري في تعدد الأساليب على المعنى الواحد، فلن يبلغ درجة البيان القرآني. وفي القراءتين ما سماه الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) "معنى المعنى" وعرّفه بقوله "أن تَعْقِل من اللفظِ معنًى، ثم يُفضي بكَ ذلكَ المعنى إِلى معنى آخرَ"(٢) ومعنى المعنى هنا: جمود القلب، ووصوله إلى درجة لا ينتفع معها بشيء مما يتلقاه"(٣).

(١) السابق نفسه.

(٢) أبو بكر عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ)، دلائل الإعجاز، تح: محمود شاكر ط: مطبعة المدني بالقاهرة -دار المدني بجدة، الثالثة ١٤١٣هـ -١٩٩٢م، (ص٢٦٣).

(٣) محمد أحمد الخراط، الإعجاز البياني في ضوء القراءات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ١٤٢٦هـ. بتصرف.

أثر القراءتين في بيان السيرة النبوية:

تَجمعُ هاتان القراءتان بين حال الداعي ﷺ، وحال جماعات من المدعوين؛ فالقراءتان أظهرتا معذرة الداعي، وأنه بذل الجهد في التبليغ من جهة، وأظهرتا من جهة أخرى سر حال هذه الجماعات، وسبب عدم اهتدائهم بدعوة الرسولﷺ ، وهذا السر يكمن في أنهم لطول عنادهم وإصرارهم على الكفر صارت حالتهم النفسية في عدم الاهتداء، كحال الأصم الذي لا يسمع.

ويبرز الإمام الطاهر بن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ) أن تعدد تشابيه المعرضين عن دعوة الرسول ﷺ مرة بالأموات، ومرة بالصم، ومرة بالعُمي؛ يرجع إلى " اختلاف أحوال طوائف المشركين؛ فكان لكل فريق تشبيه: فمنهم من غلب عليهم التوغل في الشرك، فلا يُصدقون بما يخالفه، ولا يتأثرون بالقرآن، والدعوة إلى الحق، فهؤلاء بمنزلة الأموات، أشباح بلا إدراك، وهؤلاء هم دهماؤهم... ومنهم من يُعرض عن استماع القرآن، وهم الذين يقولون: ﴿...فِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥] ويقولون: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] ، وهؤلاء هم ساداتهم، ومدبرو أمرهم، يخافون إن أصغوا إلى القرآن؛ أن يملك مشاعرهم؛ فلذلك يتباعدون عن سماعه، ولهذا قيّد الذي شُبهوا به بوقت توليهم مدبرين إعراضًا عن الدعوة، فهو تشبيهُ تمثيلٍ. ومنهم من سلكوا مسلك ساداتهم، واقتفوا خطاهم؛ فانحرفت أفهامهم عن الصواب؛ فهم يسمعون القرآن، ولا يستطيعون العمل به، وهؤلاء هم الذين اعتادوا متابعة أهوائهم، وهم الذين قالوا:﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾[الزخرف: ٢٢] ويحصل من جميع ذلك تشبيه جماعتهم بجماعة تجمع أمواتًا، وصمًا، وعميًا، فليس هذا من تعدد التشبه لمشبه واحد"(١).

(١) الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق (٢١/ ١٢٦) بتصرف.

المبحثُ الثالث عشر

حمالة الحطب، بين ذم الدنيا، وعذاب الآخرة

الآية الكريمة:﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾[المسد: ٤].

التفسير: "عَقَّبَ ذم أبي لهبٍ، ووعيده، بمثل ذلك لامرأته؛ لأنها كانت تشاركه في أذى النبي ﷺ وتُعينه عليه. وامرأته: أي زوجه، وكانت تحمل الشوك، فتضعه في الليل، في طريق النبي ﷺ الذي يسلك منه إلى بيته؛ ليعقر قدميه. فلما حصل لأبي لهبٍ وعيدٌ مُقتبسٌ مِنْ كنيته؛ جُعِل لامرأته وعيدٌ مقتبسٌ لفظهُ مِنْ فِعْلِها، وهو حَمْلُ الحطب في الدنيا، فأُنذرت بأنها تحمل الحطب في جهنم؛ ليُوقد به على زوجها، وذلك خزي لها، ولزوجها؛ إذ جُعل شدة عذابه، على يد أحب الناس إليه، وجعلها سببا لعذاب أعز الناس عليها"(١).

القراءات: قَرَأَ الجمهور:﴿ حَمَّالَةُ الْحَطَبِ ﴾رفعاً. وقَرَأَ عَاصِم وَحده﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ نصباً(٢).

التوجيه:

قراءة:﴿ حَمَّالَةُ الْحَطَبِ ﴾رفعاً: "على أنه صفة لامرأته؛ فيحتمل أنها صفتها في جهنم، ويحتمل أنها صفتها التي كانت تعمل في الدنيا بجلب حطب الْعِضَاةُ (٣) لتضعه في طريق النبيﷺ على طريقة التوجيه والإيماء إلى تعليل تعذيبها بذلك"(٤).

قراءة :﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ نصباً: "صفة نُصبت على الذم؛ لأنها اشتهرت بذلك، فصارت الصفة مصروفة عن إتباع ما قبلها، بإضمار فعل ناصب، كأنه قال أذم، أو

(١) المرجع سابق (٣٠/ ٦٠٥). باختصار، وتصرف كبيرين.
(٢) ابن مجاهد، السبعة في القراءات مرجع سابق، (ص: ٧٠٠).
(٣) ع ض هـ: (الْعِضَاةُ) كُلُّ شَجَرٍ يَعْظُمُ وَلَهُ شَوْكٌ.أهـ أبو بكر الرازي، مختار الصحاح مرجع سابق (ص: ٢١١).
(٤) الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير مرجع سابق.(٣٠/ ٦٠٦).

أعيب، أو أذكر"[١]. واستحب الإمام الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، قراءة النصب؛ لما فيها من ذم امرأة أبي لهب فقال: "وقُرئ: حمالة الحطب، بالنصب على الشتم، وأنا أستحب هذه القراءة، وقد توسل إلى رسول الله ﷺ بجميل: من أحب شتم أم جميل"[٢].

أثر القراءتين في بيان السيرة النبوية:

كانت (أروى بنت حرب)، وكنيتها أم جميل زوجةً (لأبي لهب) عم النبي محمد ﷺ وهي في ذات الوقت أختاً (لأبي سفيان بن حرب) فشاركت كلٌ منهما في عداوته للنبي ﷺ ؛ فكان زوجها أبولهبٍ، يقودُ عداوة ذوي القربي، للنبي ﷺ –وهي أشد على النفس من وقع السيوف–فشاركته في هذه العداوة؛ إذ كانت تسكن مع زوجها في بيوت بني هاشم، تعرف أسرارهم، وتطلع على عوراتهم؛ فكانت للنبي ﷺ وآل بيته بالمرصاد؛ تُوقد الفتن، وتُؤجج نار العداوات تجاههم، وتؤذيهم؛ بما تكيد به أمثالها، من شرار النساء، ذوات الكيد العظيم. وكانت عداوة أخيها أبي سفيان تُمثل عداوة دائرة القبيلة الأوسع، فشاركته أخته (أم جميل) في عداوته أيضاً، ولم تَكُف عن تأجيج النار في صدور القوم، تجاه النبي ﷺ ، ودعوته. وهاتان القراءتان تُثْبتان لها الذم في الدنيا، ولا يزال يُضرب بـــ (حمالة الحطب) المثل، لكل امرأة شريرة، تَسعي بالوقيعة، وإشعال الفتن، وإيذاء المصلحين، وهذا ما دلت عليه قراءة (حمالةَ) بالنصب؛ فقد نُصبت على الذم. وأما قراءة الرفع، فهي تُركز على السبب الذي من أجله جرى ذمها؛ وهو دورها في إيقاد نار الفتن، والعداوات؛ فامرأته صفتها، أنها حمالةُ الحطب. وهكذا: فكما كان للمرأة المؤمنة دور مشرق في السيرة النبوية، كان للمرأة المجرمة دور مظلم. وقراءة (حمالةَ) بالنصب تُؤسس للرد على ذوي العداوة للنبي ﷺ، وذمهم، وفضح جرائمهم، وإن كُنَّ نساء. قال الإمام ابن

(١) مكي ابن أبي طالب، الكشف عن وجوه القراءات السبع (٢/ ٣٩٠).

(٢) محمود الزمخشري، جار الله، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٨١٥)، (ت: ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، الثالثة -١٤٠٧ هـ.

كثير(ت:٧٧٤):"قال العلماء: وفي هذه السورة معجزة ظاهرة، ودليل واضح على النبوة، فإنه منذ نزل قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (٥)﴾ [المسد: ٣-٥] فأخبر عنهما بالشقاء، وعدم الإيمان، لم يُقيض لهما أن يُؤْمنا، ولا واحد منهما، لا ظاهراً، ولا باطناً، لا مُسراً، ولا مُعلناً؛ فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة، على النبوة الظاهرة"[1].

ولما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، وشُرع الجهاد، ونزلت آيات أحكامه، وآدابه، كان للقراءات المتواترة، دور في الكشف عن بعض معالم السيرة النبوية الشريفة، في الغزوات، والجهاد، وهذا هو موضوع المباحث الآتية.

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٥١٧) مرجع سابق.

المبحث الرابع عشر
عصمة النبي ﷺ من الغُلول

الآية الكريمة:﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[آل عمران: ١٦١].

التفسير: "ما صح لنبيّ أن يخون في المغنم كما أشاع المنافقون الكذابون؛ لأن الخيانة تُنافى النبوة، فلا تظنوا به ذلك، ومن يَخْن يأت يوم القيامة بإثم ما خان فيه، ثم تُعطى كل نفس جزاء ما عملت وافياً، وهم لا يظلمون بنقصان الثواب، أو زيادة العقاب"(١).

والغلول أصله: أخذ الشيء في خفية (٢). يُقال غَلّ من المغنم، غلولاً، وأغل إغلالاً، إذا أخذ منه شيئاً في خفية(٣)وأغل الجازر؛ إذا سرق من اللحم شيئا، مع الجلد(٤)و"غَلَّ": خَانَ في المَغْنَم، وأخذَ منه قبَل القَسْم "(٥).

القراءات: قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم **(يَغُل)** بفتح الياء، وضم الغين. **وقرأ** الباقون **(يُغَل)** بضم الياء، وفتح الغين(٦).

التوجيه:

القراءة الأولى:﴿ يَغُلَّ﴾: من غَلّ مبنياً للفاعل، والفاعل ضمير مستتر، تقديره(هو)، يعود على(نبىّ)؛ فالمعنى: ما كان لنبي" أن يخون أصحابه، فيما أفاء

(١) المنتخب في تفسير القرآن الكريم (ص: ٩٧). مرجع سابق.
(٢) أبو منصور الأزهري، تهذيب اللغة ٣/ ٢٦٨٩.مرجع سابق.
(٣) أبو إسحاق الزجاج (ت: ٣١١هـ) معاني القرآن وإعرابه ٤٨٤/١. تح: عبد الجليل شلبي ط: عالم الكتب – بيروت: الأولى ١٤٠٨ هـ -١٩٨٨ م.
(٤) ابن منظور، لسان العرب، غلل "يقال: أغللت الجلد إذا سلخته وأبقيت فيه شيئا من الشحم وأغللت في الإهاب سلخته فتركت على الجلد اللحم وأغل الجاز الإهاب إذا سلخ فترك من اللحم متلزما بالإهاب" مرجع سابق٣٢٨٦/٥.
(٥) حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل مرجع سابق (٣/ ١٥٩٨).
(٦) شمس الدين بن الجزري، مرجع سابق، النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٤٣).

الله عليهم؛ من أموال أعدائهم"[١]؛ يقول الإمام رشيد رضا (ت: ١٣٥٤هـ): "وهذا التعبير أحسن من قولهم: ما صح، ولا استقام لنبي أن يغل...فنفي الشأن، أبلغ من نفي الفعل؛ لأنه عبارة عن دعوى بدليل، كأنه يقول هنا: إن النبي لا يُمكن أن يقع منه ذلك؛ لأنه ليس من شأن الأنبياء، ولا مما يقع منهم، أو يجوز عليهم"[٢]. وقال الإمام البنا الدمياطي (ت: ١١١٧هـ) في توجيه هذه القراءة: " أي: لا يصح أن يقع من نبي غلول البتة[٣]." "والمراد تبرئته من ذلك، وتنزيهه، والتنبيه على عصمته؛ بأن النبوة، والغلول متنافيان؛ لئلا يظن ظان بالنبي ﷺ شيئاً من ذلك"[٤]. "وتنكير(نبي) هنا للتعميم"؛ لأنه تنكير في مقام النفي، فمؤدى الكلام أن النبوة، والغلول نقيضان لا يجتمعان"[٥].

وذكر آخرون، توجيهاً آخر لهذه القراءة؛ وقالوا إن الغلول المنفي عن النبي ﷺ هو كتمان الوحي قال الطبري(ت٣١٠هـ): "وقال آخرون-ممن قرأ ذلك بفتح "الياء" وضم "الغين"-إنما أنزل ذلك؛ تعريفًا للناس، أنّ النبيّ ﷺ، لا يكتم من وحي الله شيئًا"[٦]. والمعنى على هذا التوجيه: "ما ينبغي لنبي أن يكون غالاً؛ بمعنى أنه ليس من أفعال الأنبياء خيانة أممهم"[٧]. قلت: وجاء في سؤالات هرقل لأبي سفيان: "...وسألتك هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر"[٨] . "...لأنها لا تطلب تطلب حظ الدنيا، الذي ينال طالبه بالغدر، بخلاف من طلب الآخرة"[٩].

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان (٧/ ٣٤٨) مرجع سابق.
(٢) رشيد رضا، تفسير المنار (٤/ ١٧٧) باختصار، وتصرف. مرجع سابق.
(٣) البنا الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر مرجع سابق (ص: ٢٣١).
(٤) محمد بن الحسن بن محمد الفاسي، (ت:٦٥٦ه) شرح الفاسي على الشاطبية المسمى باللآلئ الفريدة في شرح شرح القصيدة، مرجع سابق ٢٦١/٢.
(٥) محمد بن أحمد أبي زهرة (ت: ١٣٩٤هـ) زهرة التفاسير (٣/ ١٤٨٣)، دار الفكر العربي (د-ت).
(٦) ابن جرير الطبري، مرجع سابق، جامع البيان (٧/ ٣٥٢).
(٧) السابق نفس الموضع .
(٨) صحيح البخاري (١/ ٩) وسبق تخريج الحديث.
(٩) ابن حجر العسقلاني، النكت على صحيح البخاري مرجع سابق.(١/ ١٩٨) .

القراءة الثانية:﴿ يُغَلَّ ﴾: مبنياً للمفعول، بضم الياء، وفتح الغين. ونائب الفاعل تقديره (هو) يعود على (نبيّ).

وفي توجيه هذه القراءة ثلاثة أوجه:

الأول: قال الإمام السخاوي:" ومعنى:﴿ يُغَلَّ ﴾ يُغَل منه أي يُخان، أي ما كان لنبيّ أن تخونه أمته في الغنيمة"(١). "ما كان لنبيّ أن يَغُلّه أصحابه، ثم أسقط "الأصحاب"، فبقي الفعل غير مسمًّى فاعله. وتأويله: وما كان لنبيّ أن يُخان"(٢). والخبر هنا بمعنى الإنشاء، والمراد لا تخونوا الرسول ﷺ بالغلول من الغنائم.

الثاني: أن معنى:﴿ يُغَلَّ﴾ أي: (يُخوَّن)؛ لأنّ بعض المنافقين قال يوم بدر–وقد فُقدت قطيفة حمراء من الغنيمة: خاننا محمد، وغلّنا، فأكذبه الله عز وجل."(٣).

نقد هذا الوجه من التوجيه: انتقد الإمام الطبري (ت٣١٠هـ) هذا الوجه، وعلل ذلك بقوله: "لأن الله –عز وجل–أوعد عقيب قوله:﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ أهلَ الغلول، فقال:﴿ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، الآية والتي بعدها. فكان في وعيده عقيب ذلك أهلَ الغلول، الدليلُ الواضح على أنه إنما نهى بذلك عن الغلول، وأخبر عباده أن الغلول ليس من صفات أنبيائه بقوله:﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾؛ لأنه لو كان إنما نهى بذلك أصحاب رسول الله ﷺ أن يتهموا رسول الله ﷺ بالغلول، لعقَّب ذلك بالوعيد على التُّهَمة، وسوء الظن برسول الله ﷺ، لا بالوعيد على الغلول. وفي تعقيبه ذلك بالوعيد على الغلول، بيانٌ بيِّنٌ، أنه إنما عرَّف المؤمنين، وغيرهم من عباده، أن الغلول منتفٍ، من صفة الأنبياء، وأخلاقهم؛ لأنّ ذلك جُرْمٌ عظيم، والأنبياء لا تأتي مثله"(٤).

(١) علم الدين السخاوي، فتح الوصيد في شرح القصيد ٨٠٣/٣. مرجع سابق.
(٢) ابن جرير الطبري، جامع البيان (٧/ ٣٥٣). مرجع سابق.
(٣) ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع، مرجع سابق (ص: ١١٦).
(٤) ابن جرير الطبري، جامع البيان (٧/ ٣٥٤). مرجع سابق.

قلت: وهذا النقد يشهد؛ ببراعة الإمام الطبري، في استخدامه السياق في نقد، وترجيح الأقوال.

الثالث: أن معنى﴿ يُغَلَّ﴾ هو تقييد اليد إلى العنق. والغُل "هو الحديدة التي تجمع يد الأسير إلى عنقه"(١). وذكر هذا القول ابن خالويه (ت: ٣٧٠هـ) أيضاً(٢). فتُفيد هذه القراءة على هذا الوجه عصمة النبي ﷺ من الأسر، والقيد، وقد صرَّح القرآن بعصمته ﷺ من ذلك قال ﷻ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ فمعنى (لِيُثْبِتُوكَ) أي: "يُوثِقُوك وَيَحْبِسُوك"(٣). وقوله تعالى:﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾[المائدة: ٦٧].

نقد هذا الوجه من التوجيه: وهذا الوجه من توجيه القراءة، وإن كان يتوافق مع معاني الآيات التي ذكرناها إلا أن سياق الآية التي وردت فيها القراءة يُضعفه؛ لأن الله تعالى قال فيها:﴿ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[آل عمران: ١٦١] فلا يتفق هذا التهديد والوعيد مع كون المراد (الغُل) بمعنى القيد من الحديد، ولأن النبي ﷺ معصوم من ذلك بأدلة أخرى. والله تعالى أعلم.

قلت: ونقد التوجيه أولى من نقد القراءة؛ لا سيما إذا كانت متواترة فقد ذكر الطبري(ت٣١٠هـ) أن سعيد ابن جبير(٤) سُئل " كيف تقرأ هذه الآية:﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ﴾أو﴿ يُغَلَّ﴾؟ قال: لا بل"يَغُل"، فقد كان النبي–والله(٥)–يُغَلُّ ويُقْتل"(١).

(١) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر، مرجع سابق. ٣/ ٣٨٠.
(٢) ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع، مرجع سابق. (ص: ١١٦).
(٣) جلال الدين المحلي، جلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين، مرجع سابق. (ص: ٢٣٢).
(٤) التابعي الجليل سعيد بن جبير (ت:٩٥ ه): هو "ابن هشام، الإمام، الحافظ، المقرئ، المفسر، الشهيد، أبو محمد ... أحد الأعلام. روى عن: ابن عباس -فأكثر وجوّد-وعن: عبد الله بن مغفل، وعائشة، وعدي بن حاتم، وأبي موسى الأشعري ...". شمس الدين الذهبي (ت: ٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء مرجع سابق (٥/ ١٨٧).
(٥) لفظ الجلالة هنا مقسم به، والواو للقسم.

قلت: وجواب التابعي الجليل يُقْبَلُ؛ لو لم تكن القراءة متواترة؛ أمَا وقد تواترت؛ فهي الحجة الملزمة، وتوجيهها واضح –كما سبق–فهي من الخبر المراد به الإنشاء، والمعنى لا يكن شأنكم، أن تخونوا نبيكم في الغنيمة؛ واستعمال الخبر بمعنى الإنشاء كثير في اللغة(٢). وواضح أن القول المنسوب للتابعي الجليل سعيد ابن جبير–رحمه الله–بُنى فيه النقد لقراءة ﴿ يُغَلَّ﴾ على أن معنى ﴿ يُغَلَّ﴾ أي: تُقيَّدُ يداه إلى عنقه بالغُل؛ أي: القيد من الحديد؛ بقرينة عطفه فعل(ويُقتل) عليه في قوله:" فقد كان النبي –وَاللهِ– يُغَلُ ويُقْتَلُ"، وسبق بيان عصمة النبي ﷺ من مثل هذا، كما سبق بيان ضعف هذا الوجه من التوجيه، ولا يجوز رد القراءة المتواترة، أو التشكيك فيها على أي حال، وما نُسب إلى بعض الأئمة من ذلك مرجعه؛ أن تلك القراءة، لم تبلغه متواترة، وليس من شرط التواتر أن يعلمه كل الناس، وإنما يكفى أن يعلمه عدد، يبلغون به درجة التواتر قال الإمام الذهبي(ت : ٧٤٨هـ): "ليس من شرط التواتر أن يصل إلى الأمة، فعند القراء أشياء متواترة دون غيرهم، وعند الفقهاء مسائل متواترة عن أئمتهم لا يدريها القراء، وعند المحدثين أحاديث متواترة قد لا يكون سمعها الفقهاء..."(٣).

هل الآية من العام المراد به الخاص أم من العام الباقي على عمومه؟

من اللطائف التي لاحت لي –بفضل الله تعالى–أن أسلوب الآية قد يكون من العام المراد به الخاص؛ دليل ذلك أن الغنائم –وهي مظنة وقوع الغلول–لم تكن حلالاً للأنبياء قبل نبينا ﷺ وهذا نصُ ما رواه البخاري عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ : " أُعطيتُ خمساً لم يُعطهن أحدٌ من الأنبياء قبلي: نُصرت

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان (٧/ ٣٤٩) مرجع سابق.

(٢) قد يخرج الخبر عن أصل المعنى الذي وضعت له صيغه... فقد يُراد من الخبر في الجملة الخبرية الأمر، ومنه:﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾[البقرة: ٢٣٣] أي: ولْيُرْضِعِ الوالداتُ أَوْلاَدَهُنَّ.أهـ، ابن حبنكة الميداني، البلاغة العربية (١/ ١٧٥) مرجع سابق.

(٣) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، (١٠/ ١٧١).

بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجداً، وطهوراً، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة، فليصل، وأُحلت لي الغنائم، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى الناس كافة، وأُعطيت الشفاعة "(١). والغلول مرتبط بالغنائم. فقوله تعالى:﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ﴾ عام؛ لأن كلمة (نبيّ) نكرة، وقعت في سياق النفي؛ وهذا من صيغ العموم، لكن المراد به نبي خاص، هو النبي محمد ﷺ؛ لأنه النبي الوحيد من بين الأنبياء الذي أحل الله له الغنائم، والغنائم هي محل الغلول المنفي؛ فلا يُتصور نفي الغلول من الغنائم عن الأنبياء السابقين فهي لم تحل لهم، ولا لأقوامهم من البداية.

ومن الجائز أن يكون، أسلوب الآية عاماً، مراداً به العموم؛ إذا اعتبرنا أن معنى الغلول، بالنسبة للأنبياء السابقين، هو مُطلق الأخذ من الغنيمة؛ لأن كلها مُحرمة عليهم، فأي أخذ منها يُعد غلولاً، أما في شريعة النبي محمد ﷺ؛ فإن الغلول هو أخذ شيء من الغنيمة خفية، قبل قسمة النبي ﷺ الغنائم؛ فمن أخذ من الغنيمة نصيبه المقسوم له من النبي ﷺ؛ فهو الحلال الطيب قال الله تعالى:﴿...فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٩].

ويبقى عموم الآية مراداً به العموم أيضاً؛ إذا وُجهت القراءة، بأن معناها تعريف الناس أنّ الأنبياء لا يكتمون من وحي الله شيئاً. وقد سبق تقرير هذا المعنى عن النبي الخاتم ﷺ في مبحث عصمة ﷺ النبي في تبليغ الوحي.

التوجيه المختار للقراءتين وأثرهما في بيان السيرة:

قراءة:﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ بالبناء للفاعل: أي: ما كان لنبي" أن يخون أصحابه، فيما أفاء الله عليهم، من أموال أعدائهم. وهذه القراءة بهذا التوجيه، تدل على عصمة النبي ﷺ من الغُلول.

(١) صحيح البخاري (١/ ٩٥) مرجع سابق. كتاب: الصلاة. باب: قول النبي ﷺ : " جُعلت لي الأرض مسجدًا، وطهورًا. حديث رقم:٤٣٨.

قراءة:﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يُغَلَّ﴾ بالبناء للمفعول: أي: ما كان لنبي أن يُغَل منه؛ أي: يُخَانَ؛ أي: ما كان لنبيّ أن تخونه أمته في الغنيمة. وهذه القراءة بهذا التوجيه تدل على فضل النبي ﷺ وخصوصيته بكون المعاصي تَعْظُمُ بحضرته؛ فالغلول من غنيمة النبي ﷺ ، تعظم في الجُرْمِ عن الغُلولِ مِنْ غنيمة غيره من الأمراء، وإن كان الغلول من الكبائر على كل حال. قال الإمام الواحدي (ت: ٤٦٨هـ): "... لا يجوز أن يُغَلّ غيرُ النبيِّ، مِن إمام المسلمين وأميرٍ لهم. وفائدة تخصيص النبي ﷺ بالذِّكْر: أن الغُلُول يَعْظُمُ بحضرته، ويكبر كِبَرًا لا يكبر عند غيره؛ لأن المعاصي بحضرته أعظم"(١).

قلت: وحق النبيﷺ في غنائم حروب المسلمين المشروعة قائم إلى قيام الساعة؛ فحكم توزيع الغنائم شريعة محكمة؛ لم تنسخ، وفيها أن خمس الغنائم لله ﷻ وللرسول ﷺ ؛ فالنهي عن الغلول من غنيمة النبي ﷺ نهيٌ لا يزال قائماً، وسيظل ما بقي القرآن الكريم؛ قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

(١) أبو الحسن الواحدي، مرجع سابق، التفسير البسيط (٦/ ١٣٣).

المبحث الخامس عشر

قتال الصحابة ﷺ مع النبي ﷺ

الآية الكريمة:﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾[آل عمران: ١٤٦].

التفسير: "وكم من الأنبياء، قاتل مع كل منهم، كثيرون من المؤمنين، المخلصين لربهم، فما جبنت قلوبهم، ولا فترت عزائمهم، ولا خضعوا لأعدائهم؛ بسبب ما أصابهم في سبيل الله، لأنهم في طاعته، والله يُثيب الصابرين على البلاء"(١).

القراءات: قرأ أبو جعفر وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف﴿ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ ﴾بالألف. وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب﴿ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ﴾ بضم القاف، وكسر التاء. (٢)

التوجيه:

قراءة:﴿ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ ﴾: المعنى إنهم قاتلوا، وما وهنوا في قتالهم.

قراءة: ﴿ قُتِلَ مَعَهُ ﴾: قال الإمام الزجاج (ت: ٣١١هـ): " ومن قرأ قُتِلَ، فالأجود أن يكون﴿ قُتِلَ ﴾ للنبي –عليه السلام–المعنى... وكأين من نبي قُتل، ومعه ربيون، فما وهنوا بعد قتله، لأن هؤلاء الذين وهنوا كانوا توهموا أَن النبي ﷺ قتل، فأعلم الله –عزَّ وجلَّ –أن الربانيين بعد قتل نبيهم ما وهنوا. وجائز أن يكون﴿ قُتِلَ﴾ للربانيين، ويكون﴿ فَمَا وَهَنُوا ﴾أي: ما وهن من بقي منهم" (٣).

(١) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، مرجع سابق (ص: ٩٤).
(٢) ابن مجاهد، السبعة في القراءات مرجع سابق، (ص: ٢١٧).
(٣) أبو إسحاق الزجاج، معاني القرآن، وإعرابه (١/ ٤٧٦) مرجع سابق.

أثر القراءتين في بيان السيرة النبوية:

هاتان القراءتان تُصوران، جهاد الأنبياء، وأصحابهم عبر القرون، وثباتهم على الحق، والجراحات والقتل؛ فكم من نبي قُتل؛ فثبت من بقي من أصحابه، على دينه، ودعوته. وكم من نبي قاتل، ومعه أصحابه الربانيون، فأصابتهم الجراحات العظيمة، والقتل في صفوفهم، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا، وما استكانوا. والآية الكريمة بقراءتيها –وإن جاءت على سبيل الموعظة للصحابة الكرام ﷺ، والمؤمنين من بعدهم؛ حتى يواصلوا الثبات، على طريق الأنبياء، وإن أصابهم ما أصابهم في سبيل الله، فمعناها ينطبق تمام الانطباق على غزوات النبي ﷺ ومعه أصحابه الكرام ﷺ وينطبق على الصحابة ﷺ بعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى؛ فقد ثبتوا وجاهدوا، وحفظوا ميراث النبوة، وفتحوا البلاد، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، على أيديهم ببركة صحبتهم للنبي ﷺ وثباتهم على الحق.﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾[الأحزاب: ٢٣].

النتائج، والمقترحات

أحمدُ الله، في الختام، كما حمدته في البدء، وأصلي، وأسلم على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه وسلم، وبعد: فقد توصل بحث:(السيرة النبوية: في ضوء القراءات القرآنية المتواترة) إلى أن القراءات المتواترة لها دور هام، في بيان معالم كبرى في السيرة النبوية المطهرة؛ كانت على النحو التالي:

أولاً: قراءة (النبيء) بالهمز: دلت على وظيفة النبي ﷺ ، من جهتيها (مصدرها، وغايتها)؛ فهو مُنَبَّأٌ من الله ﷻ، ومُنَبِّيءٌ عن الله ﷻ . وقراءة (النبيّ) بغير همز: دلت على منزلة النبيّ ﷺ بين الناس، وأثره فيهم؛ فهو كالمكان العالي؛ تشخص إليه الأبصار، ويهتدي به المسافرون، وهو كالطريق الواضح المستقيم؛ الذي يسلكه مَنْ يطلب النجاة.

ثانياً: قراءة (خَاتَمَ النبيين) بفتح التاء دلت على أن النبي ﷺ هو خاتَم الأنبياء أي: الذين ختموا به فهو آخرهم زمناً، فلا نبي بعده. وأما قراءة الخفض، فمعناها الذي خُتمت به النبوة، فَطُبع عليها به، فلا تُفتح لأحدٍ بعده إلى قيام الساعة.

ثالثاً: قراءة﴿ مَحْفُوظٍ﴾ بالرفع في قوله تعالى:﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾[البروج: ٢١-٢٢] دلت على حفظ القرآن في السماء، وقراءة﴿ مَحْفُوظٍ﴾ بالخفض دلت على حفظه في الأرض، فهاتان القراءتان تُلقيا اليقين في قلب المؤمن، بأن القرآن الكريم قائم مقام النبوة الخاتمة إلى قيام الساعة.

رابعاً: أثبتت قراءة الضاد (ضنين) عصمة النبيّ ﷺ من كتمان الوحي، وأثبتت قراءة الظاء (ظنين) عصمة النبي ﷺ من الظنة، والتهمة؛ المؤدية إلى التبديل. وذلك في قوله تعالى:﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[التكوير: ٢٤]، وتُظهر هاتان القراءتان جانباً من أهم جوانب السيرة النبوية، وهو ما يتعلق بعصمة الرسول ﷺ في تلقي الوحي وتبليغه.

خامساً: قراءة (وما كنتَ) بفتح التاء ضميراً للمخاطب خطاباً للنبي ﷺ في قوله تعالى:﴿ وَمَا كُنْتَ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾[الكهف: ٥١]. ليُعلم أمته أنه لم يزل محفوظاً من أول نشأته، لم يعتضد بمضلٍ ولا مال إليه؛ وهذه القراءة تربط بين عصمة النبي ﷺ، وعدالة الصحابة ﷺ، فتجعل تلك العدالة، وجهاً من وجوهها؛ فما كان من شأنه ﷺ، ولا من طبعه ﷺ، ولا من شرعه ﷺ أن يتخذ من المضلين عضدًا، أو نصيرًا، بل كان عضده، ونصيره من البشر؛ هم الذين قال اللهﷻ فيهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠]

سادساً: قراءة﴿ أَشَدُّ وَطْئًا ﴾، و﴿ أشد وِطَاءً ﴾، في قوله تعالى:﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾[المزمل: ٦]. أما قراءة:﴿ أَشَدُّ وَطْئًا﴾؛ فتفيد أنها ثقيلة الوطأة على البدن، وأما قراءة: ﴿أشد وِطَاءً﴾؛ فتفيد أن ما يُرتله اللسان من القرآن الكريم في صلاة الليل، يُوافق سمعاً منصتاً، وقلباً مستعداً، وهمة مجتمعة، وعقلا متأملاً؛ وصورت لنا القراءتان صورة النبي ﷺ العابد المرتل للقرآن ترتيلاً في صلاة الليل، وأثر هذه العبادة في بدنه وقلبه ﷺ.

سابعاً: قراءة﴿ لَا تَقَدَّمُوا﴾ بفتح التاء والدال، وقراءة "تُقدموا" بضم التاء وَكَسْرِ الدَّالِ، في قوله تعالي:﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١] أما قراءة فتح التاء والدال: فتُفيد النهي عن التقدم بين يدي رسول الله ﷺ بفعل. وأما قراءة ضم التاء وَكَسْرِ الدَّالِ: فتُفيد العموم في النهي عن التقدم في الأقوال والأفعال، وتفيد القراءتان، أن علاقة الصحابة ﷺ بالنبي ﷺ، كانت محل نظر الوحي الإلهي، وتوجيهه الدائم، سواء في ذلك أفعالهم، أو أقوالهم، وهي منزلة جليلة؛ جعلت من حياتهم مرآة، للوحي، وميداناً لأوامره، ونواهيه، لذلك كانوا هم أعلم الناس بالوحي قرآناً وسنة.

ثامناً: قراءة﴿ وقِيلَهُ ﴾بنصب اللام، وضم الهاء. وقراءة﴿ وقيلِهِ﴾ بخفض اللام، وكسر الهاء. في قوله تعالى:﴿ وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[الزخرف: ٨٨] تَجمع القراءتان بين معنيين متلازمين، حفلت بهما الفترة المكية.

الأول: شكوى النبي ﷺ إلى ربه، إصرار قومه على الكفر، وصدهم عن سبيل الله.

والثاني: مواساة النبي ﷺ من ربه ﷻ ، على ما هم فيه من إصرار على الكفر.

تاسعاً: قراءة﴿ عَجِبْتَ﴾ بفتح التاء. في قوله تعالى:﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾[الصافات: ١٢]. تُفيد أن النبي ﷺ واجه من قومه من الأفعال، والأقوال ما يدعوه للعجب؛ فهو يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه هم إلى النار.

عاشراً: قراءة:﴿ لِتزولَ﴾ بكسر اللام الأولى، ونصب الثانية. وقراءة:﴿ **لَتزولُ**﴾ بفتح اللام الأولى ورفع الثانية. في قوله: ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ القراءتان تُلخصان قصة صراع الحق، والباطل، في السيرة الشريفة؛ فقد كان الحق ممثلاً في أهله من النبي ﷺ، وأصحابه الكرام ﷺ، ثابتين، أمام مكر المشركين، وكيدهم؛ ثبوت الجبال، لا تُؤثر فيها الرياح، والأعاصير، وإن اشتدت، وكان الباطل ممثلاً في صناديد الكفر، يشتدون في مكرهم، وعداوتهم، بحيث إنها بلغت من قوتها، وإحكام أمرها، أنها لو كانت ريحاً، لكادت من شدتها، أن تُزيل الجبال عن أماكنها، فلو كان مكرٌ يزيل الجبال، لشدته، لكان مكرهم، ولكن قضت حكمة الله ﷻ أن الجبال أقوى وأشد ثباتاً.

حادي عشر: قراءة:﴿ ولا تَسْأَلْ﴾ بفتح التاء، وجزم اللام على النهي، بالبناء للفاعل. وقراءة: ﴿ وَلَا تُسْأَلُ﴾ بضم التاء، والرفع على الخبر. في قوله تعالى:﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ [البقرة:١١٩]. تُبرز القراءتان العلاقة، بين الرسول ﷺ، وبين من أصر على كفره، ومات كافراً. أما

قراءة﴿ وَلَا تُسْأَلُ ﴾ بضم التاء؛ فتُبين أن النبي ﷺ بأدائه مهمة البلاغ؛ قد أدى ما عليه؛ فلن يُسأل عن سبب كفر هؤلاء، وتُشير إلى تسلية النبي ﷺ بسبب شعوره بالحزن، من كُفر مَنْ كَفر، وأما قراءة ﴿ ولا تَسْأَلْ﴾ فهي تُبين بشرية الرسول ﷺ، وأن مصير الناس، وحسابهم في الآخرة، بيد الله ﷻ وحده. كما تحمل، وعيداً للكافرين؛ فحالهم في العذاب الشديد، لا يُسأل عنه لشدته وهوله.

ثاني عشر: قراءة:﴿ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ ﴾بتاء مضمومة مع كسر ميم﴿ تُسْمِعُ﴾ونصب ميم الصُّمَّ. وقراءة﴿ يَسْمَعُ﴾ بياء مفتوحة مع فتح الميم ورفع ميم﴿ الصُّمَّ ﴾ ، في قوله تعالى: ﴿...إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ(٨٠) ﴾ [النمل:٨٠]. تَجمعُ هاتان القراءتان بين حال الداعي ﷺ، وحال جماعات من المدعوين، فالقراءتان تُبينان معذرة الداعي، وأنه بذل الجهد في التبليغ من جهة، وتُبينان من جهة أخرى سر حال هذه الجماعات، وسبب عدم اهتدائهم بدعوة الرسولﷺ، وهذا السر يكمن في أنهم لطول عنادهم، وإصرارهم على الكفر صارت حالتهم النفسية في عدم الاهتداء، كحال الأصم الذي لا يسمع.

ثالث عشر: وقَرَاءة﴿ حمالَةَ ﴾ نصباً من قوله تعالى:﴿ ...وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ [المسد: ٤]. تُثبت لها الذم في الدنيا، ولا يزال يُضرب بـــ (حمالة الحطب) المثل، لكل امرأة يقصد ذمها. وأما قراءة الرفع، فهي تُركز على دورها، في إيقاد نار الفتن، والعداوات، فامرأته صفتها أنها حمالةُ الحطب.

رابع عشر: قراءة﴿ يَغُل﴾ بفتح الياء، وضم الغين. وقراءة﴿ يُغَل﴾ بضم الياء، وفتح الغين في قوله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ... ﴾ [آل عمران: ١٦١]. قراءة ﴿ يَغُل﴾ أي: ما كان لنبي" أن يخون أصحابه؛ فيما أفاء الله عليهم، من أموال أعدائهم. وهذه القراءة بهذا التوجيه، تدل على عصمة النبي ﷺ من الغلول. وقراءة ﴿ يُغَل﴾ أي: ما كان لنبي أن يُغَل منه أي يُخان، أي ما كان لنبي أن تخونه أمته في الغنيمة. وهذه القراءة، بهذا التوجيه، تدل على فضل النبي ﷺ ، وخصوصيته بكون

المعاصي تعظم بحضرته؛ فالغلول من غنيمة النبي ﷺ، تعظم في الجُرْم، والحرمة، عن الغلول من غنيمة غيره من الأمراء، وإن كان الغلول من الكبائر، على كل حال.

خامس عشر: قراءة:﴿ قَاتَلَ ﴾ بالألف، وقراءة:﴿ قُتِلَ ﴾ بضم القاف، وكسر التاء. من قوله تعالى:﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ... ﴾ [آل عمران: ١٤٦]. هاتان القراءتان تُصوران جهاد الأنبياء، وأصحابهم عبر القرون، وثباتهم على الحق مع ما أصابهم؛ فكم من نبي قُتل، فثبت من بقي من أصحابه على دينه، ودعوته، وكم من نبي قاتل، ومعه أصحابه الربانيون، فأصابتهم الجراحات العظيمة، والقتل في صفوفهم، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا، وما استكانوا. وكان النبي ﷺ وأصحابه الكرام ﷺ في القلب من ذلك الوصف الجليل للثبات المخلص، والصبر الجميل، على الحق.

المقترحات: دراسة السيرة النبوية في ضوء القراءات الشاذة.

والحمد لله رب العالمين.

١ أعلىالمراجع [١]

- **القرآن الكريم.**
- إبراهيم أبو إسحاق الزجاج (ت: ٣١١ه) معاني القرآن وإعرابه، تح: عبد الجليل عبده شلبي الناشر: عالم الكتب – بيروت: الأولى ١٤٠٨ هـ –١٩٨٨ م.
- أبو الحسن الواحدي (ت: ٤٦٨هـ)، التفسير البسيط، تح: أصل تحقيقه في (١٥) رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، ط: عمادة البحث العلمي. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية: الأولى، ١٤٣٠ هـ.
- أبو الحسن، برهان الدين البقاعي (ت: ٨٨٥ هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، بيروت –١٤١٥هـ –١٩٩٥ م. تح: عبد الرزاق غالب المهدي.
- أبو العباس القرطبي (ت:٦٥٦ هـ)، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، تح: محيي الدين ديب ميستو –أحمد محمد السيد –يوسف علي بديوي – محمود إبراهيم بزال الناشر: (دار ابن كثير، دمشق –بيروت)، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م.
- أبو الفداء إسماعيل بن كثير (ت: ٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، تح: سامي ابن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع: الثانية ١٤٢٠هـ –١٩٩٩ م.
- أبو القاسم الحسين المعروف بالراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ). المفردات في غريب القرآن، تح: صفوان عدنان الداودي ط: دار القلم، دمشق،١٤١٢ هـ.
- أحمد أبو بكر بن مجاهد البغدادي (ت: ٣٢٤هـ)، السبعة في القراءات، تح، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، الثانية، ١٤٠٠هـ.

(١) رتبت أبجديًا.

- أحمد بن فارس الرازي، أبو الحسين (ت: ٣٩٥هـ) مقاييس اللغة، تح، عبد السلام محمد هارون، دار الفكر ١٣٩٩هـ -١٩٧٩م.
- أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت: ١٤٢٤هـ)، معجم اللغة العربية المعاصرة، بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، ١٤٢٩ هـ -٢٠٠٨ م.
- ابن الملقن سراج الدين المصري (ت: ٨٠٤هـ)، التوضيح لشرح الجامع الصحيح. تح: دار الفلاح. ط: دار النوادر، دمشق، الأولى، ١٤٢٩ هـ -٢٠٠٨ م.
- ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ)، رسائل ابن حزم الأندلسي رسالة في فضل الأندلس، وذكر رجالها. تح: إحسان عباس الناشر :المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- أبو الحسن بن سيده (ت: ٤٥٨ هـ)، المحكم والمحيط الأعظم، تح، عبد الفتاح السيد سليم، فيصل الحفيان، معهد المخطوطات العربية (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م).
- أبو العباس، المعروف بالسمين الحلبي (ت: ٧٥٦هـ)، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: تح: الدكتور أحمد محمد الخراط الناشر: دار القلم، دمشق.
- أبو الفداء بن كثير (ت: ٧٧٤هـ) البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر: ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.
- أبو الفداء بن كثير (ت: ٧٧٤هـ)، السيرة النبوية، تح، مصطفى عبد الواحد ط: دار المعرفة -بيروت - لبنان: ١٣٩٥ هـ -١٩٧٦ م.
- أبو بكر بن العربي (ت: ٥٤٣ هـ)، أحكام القرآن لابن العربي: تح: علي محمد البجاوي: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الأولى.
- أبو حامد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ)، إحياء علوم الدين، دار المعرفة - بيروت. (ب- ت).

• أبو سليمان حمد بن محمد المعروف بالخطابي (ت: ٣٨٨ هـ)، غريب الحديث، تح، عبد الكريم إبراهيم الغرباوي. خرج أحاديثه: عبد القيوم عبد رب النبي ط: دار الفكر – دمشق: ١٤٠٢ هـ -١٩٨٢ م.

• أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي (ت: ٦٠٦هـ)، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠ هـ.

• أحمد الدمياطيّ، الشهير بالبناء (ت: ١١١٧هـ) إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، تح: أنس مهرة الناشر: دار الكتب العلمية – لبنان.

• أحمد بدر، أصول البحث العلمي ومناهجه. وكالة المطبوعات الكويتية، ط ٧-١٩٨٤م، توزيع دار القلم بيروت.

• أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، النكت على صحيح البخاري، ويليه «التجريد على التنقيح»، تح: أبو الوليد هشام بن علي السعيدني، أبو تميم نادر محمود، المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، القاهرة: الأولى، ١٤٢٦ هـ -٢٠٠٥م.

• أحمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ) الإصابة في تمييز الصحابة. ت: عادل عبد الموجود، وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية بيروت: الأولى. ١٤١٥ هـ.

• أحمد بن حجر العسقلاني، (ت: ٨٥٢هـ) فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة –بيروت، ١٣٧٩ه تح، محمد فؤاد عبد الباقي وآخرون.

• الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ الأصل، أبو علي (ت: ٣٧٧هـ)، الحجة للقراء السبعة، تح: بدر الدين قهوجي، وآخرون دار المأمون للتراث، دمشق، بيروت، ط، الثانية، ١٤١٣ هـ -١٩٩٣م.

• الحسين بن أحمد بن خالويه، أبو عبد الله (ت: ٣٧٠هـ)، الحجة في القراءات السبع. تح: د. عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، بيروت، الرابعة، ١٤٠١ هـ.

• جلال الدين المحلي (ت: ٨٦٤هـ) وجلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، تفسير الجلالين، دار الحديث، القاهرة. (د-ت).

• جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي (ت: ٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر- بيروت،١٤١٤ه.

• شمس الدين أبو الخير ابن الجزري (ت: ٨٣٣ هـ)، النشر في القراءات العشر، تح: علي محمد الضباع (ت ١٣٨٠ هـ)، المطبعة التجارية الكبرى. (دت).

• شمس الدين الذهبي (ت: ٧٤٨ هـ)، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، الرسالة، بيروت، ١٤٠٤هـ. تح: بشار عواد معروف، وآخرون.

• شمس الدين الذهبي (ت

• ٧٤٨ هـ) سير أعلام النبلاء تح: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط تقديم: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، طبعة، ثالثة، ١٤٠٥ هـ ،١٩٨٥ م.

• عباس حسن (ت: ١٣٩٨هـ)، النحو الوافي. دار المعارف، الخامسة عشرة. (د-ت).

• عبد الفتاح بن عبد الغني القاضي (ت: ١٤٠٣هـ)، البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، دار الكتاب العربي، بيروت -لبنان. (د-ت).

• عثمان بن سعيد أبو عمرو الداني (ت: ٤٤٤هـ)، جامع البيان في القراءات السبع، جامعة الشارقة، (أصل الكتاب رسائل ماجستير من جامعة أم

القرى وتم التنسيق بين الرسائل وطباعتها بجامعة الشارقة)، الأولى، ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧ م.

- مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير (ت: ٦٠٦هـ)، النّهاية في غريب الحديث والأثر، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ –١٩٧٩م تح: طاهر أحمد الزاوي –محمود محمد الطناحي.
- مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية الطبعة: الأولى، (١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م) – (١٤١٤ هـ = ١٩٩٣ م).
- محمد أبو منصور الماتريدي (ت: ٣٣٣هـ)، تأويلات أهل السنة، تح: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية –بيروت، لبنان: الأولى، ١٤٢٦ هـ –٢٠٠٥ م.
- محمد الطاهر بن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ) التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» ، الدار التونسية للنشر: ١٩٨٤ هـ.
- محمد بن جرير أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ) جامع البيان في تأويل القرآن. تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الأولى، ١٤٢٠ هـ –٢٠٠٠ م.
- محمد بن عبد الله دراز (ت: ١٣٧٧هـ)، دستور الأخلاق في القرآن، مؤسسة الرسالة. العاشرة ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.
- محمد بن عيسى الترمذي (ت: ٢٧٩هـ)، سنن الترمذي، تح، أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢) ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣) وإبراهيم عطوة عوض (جـ ٤، ٥)، شركة مكتبة، ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر١٣٩٥ هـ –١٩٧٥م.
- محمد حسن حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، مكتبة الآداب القاهرة: الأولى، ٢٠١٠ م.
- محمَّد زيان عمر، البحث العلمي مناهجه وتقنياته، جدة ١٣٩٤هـ.

- محمد سالم محيسن (ت: ١٤٢٢ هـ) المغني في توجيه القراءات العشر، دار الجيل، بيروت، مكتبة الكليات الأزهرية، الثانية، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- مسلم بن الحجاج (ت: ٢٦١ هـ) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، تح: مجموعة من المحققين، دار الجيل، بيروت. (د. ت).
- حامد عوني، المنهاج الواضح للبلاغة، المكتبة الأزهرية للتراث (د-ت).
- دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ)، تح: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ١٤١٣هـ -١٩٩٢م.
- رجاء وحيد دويدري، البحث العلمي أساسياته النظرية، وممارسته العملية، دار الفكر المعاصر-بيروت-لبنان-دار الفكر-دمشق-سورية، ط، أولى١٤٢١ه-م٢٠٠٠.
- زين الدين محمد بن أبي بكر الرازي (ت: ٦٦٦هـ)، مختار الصحاح تح، يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان،١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
- الشريف الرضي (ت: ٤٠٦ هـ)، تلخيص البيان في مجازات القرآن، تح: محمد عبد الغني حسن، دار الأضواء، بيروت، الثانية ١٩٨٦م.
- شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (ت: ٨٣٣هـ)، منجد المقرئين ومرشد الطالبين، دار الكتب العلمية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- ظاهر شوكت البياتي، أدوات الإعراب، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ -٢٠٠٥ م.
- عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (ت: ١٤٢٥هـ) البلاغة العربية، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م.

- عبد الرحمن، أبو زرعة ابن زنجلة (ت: حوالي ٤٠٣هـ)، حجة القراءات، تح: سعيد الأفغاني. دار الرسالة.
- عبد الغفور مصطفى، التفسير والمفسرون في ثوبه الجديد، دار السلام. الأولى، ١٤٢٨هـ -٢٠٠٧م.
- عبد الله بن أحمد الفاكهي النحوي (٨٩٩ -٩٧٢ هـ)، شرح كتاب الحدود في النحو، تح، المتولي رمضان أحمد الدميري، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٤ هـ -١٩٩٣ م.
- عبد المتعال الصعيدي (ت: ١٣٩١هـ)، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة المؤلف، مكتبة الآداب: السابعة عشرة، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
- علل وأدوية، محمد الغزالي السقا (ت: ١٤١٦ هـ)، دار نهضة مصر، (د-ت).
- علم الدين السخاوي (ت ٦٤٣ه)، فتح الوصيد في شرح القصيد، تح، ودراسة، مولاي محمد الإدريسي، مكتبة الرشد، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥م.
- علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت: ٨١٦هـ)، التعريفات، تح: جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية بيروت -لبنان، الأولى ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.
- عمرو بن عثمان الملقب سيبويه (ت: ١٨٠هـ)، الكتاب، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٨ هـ -١٩٨٨ م.
- لجنة من علماء الأزهر، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، مصر، الثامنة عشر، ١٤١٦ هـ -١٩٩٥ م.
- مجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين، الموسوعة القرآنية المتخصصة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر: ١٤٢٣ هـ -٢٠٠٢ م.

• محمد أحمد الخراط، الإعجاز البياني في ضوء القراءات القرآنية. ط. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ١٤٢٦هـ.

• محمد الأزهري الهروي، أبو منصور (ت: ٣٧٠هـ)، تهذيب اللغة، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الأولى، ٢٠٠١م.

• محمَّد الخَضِر بن سيد عبد الله الشنقيطي (ت: ١٣٥٤هـ)، كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

• محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، التبيان في أقسام القرآن، تح: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، لبنان. (ب- ت).

• محمد بن أحمد أبي زهرة (ت: ١٣٩٤هـ)، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي. (ب- ت).

• محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (ت: ٣٧٠ه)، معاني القراءات، جامعة الملك سعود المملكة العربية السعودية،١٤١٢ هـ -١٩٩١ م.

• محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تح، محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة. الأولى، ١٤٢٢هـ.

• محمد بن الحسن بن محمد الفاسي (ت:٦٥٦ه)، شرح الفاسي على الشاطبية المسمى باللآلئ الفريدة في شرح القصيدة، تح، عبد الرزاق بن علي بن إبراهيم موسى، مكتبة الرشد،١٤٢٦ه ـ٢٠٠٥ م.

• محمد بن الخطيب (ت: ١٤٠٢هـ)، أوضح التفاسير، المطبعة المصرية، السادسة، ١٣٨٣ هـ ١٩٦٤ م .

• محمد شمس الدين الداوودي المالكي (ت: ٩٤٥هـ)، طبقات المفسرين للداوودي، دار الكتب العلمية – بيروت. (د-ت).

- محمد عميم الإحسان، التعريفات الفقهية، دار الكتب العلمية، الأولى٢٠٠٣م.
- محمود بن عمرو الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧ هـ.
- المعتصم بالله طاهر بن صالح بن أحمد الجزائري، التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريق الإتقان، ط المنار ١٣٣٤ ه.
- مكي بن أبي طالب (ت: ٤٣٧هـ)، الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، تح: مجموعة رسائل –جامعة الشارقة، بإشراف، الشاهد البوشيخي، جامعة الشارقة. (د–ت).
- الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، مانع بن حماد الجهني ط: دار الندوة العالمية: الرابعة، ١٤٢٠ هـ.
- نور الدين عتر، علوم القرآن الكريم الصباح. دمشق،١٤١٤ هـ – ١٩٩٣م.

References:

The Glorious Quran

- Az-Zajaj, *Maani Al-Quran wa Aerabouh***,** 1st ed, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah,1415AH-1994AD.
- Al-Wahidi *At-Tafseer Al-Baseet*, PhD thesis Imam Muhammad bin Saud University,ed of Deanship of Scientific Research. Imam Muhammad bin Saud Islamic University, 1430 AH.
- Al-Baqaai, *Nazim Ad-Dur fi Tanasub Al-Ayat wa As-Sowar*, Dar Al-Kitab Al-Islami, - Beirut-1415AH-1995AD.
- Al-Qurtubi, *Al-Moufhem lema Ashkal men Talkhees Kitab Muslim*; Publisher Dar Ibn Katheer, Damascus - Beirut), 1417 AH-1996 AD.
- Ibn Katheer *Tafseer Al-Quran Al-Azeem*, Dar Tayyibah for Publishing and Distribution:2nd ed 1420AH - 1999 AD.
- Al-Asfahani. *Al-Mofradat fi Ghareeb Al--Quran*, Dar Al-Qalam, Damascus,1412 AH.
- Al-Baghdadi, *As-Saba fi Al-Qiraat*, Dar Al-Maaref, Egypt, 2nd ed, 1400AH.
- Ar-Razi, Abu Al-Hussein *Maqayees Al-Loughah*, Dar Al-Fikr 1399AH - 1979 AD.
- Ahmed Mokhtar Abdel Hamid Omar, *Mojam Al-Lughah Al-Arabiyyah Al- Moasirah*, Allam Al-Kutub, 1429 AH - 2008 AD
- Ibn Al-Mulaqan Siraj Ad-Deen Al-Masri, *At-Tawdeeh li Sharh Al-Jama As-Saheeh*, Dar Al-Falah., ed of Dar Al-Nawader, Damascus,1st edition, 1429AH - 2008AD.

- Ibn Hazm Al-Andalusi, *Rasael Ibn Hazm AL Andalusi Risalah fi Faddal Al-Andalous wa Zikr Rejaleha,* Publisher: Arab corporation for Studies and Publishing.
- Ibn Saidah, *Al-Mohkam wa Al-Moheet Al-Azam*, Institute of Arabic Manuscript (1424AH - 2003AD).
- As-Sameen Al-Halabi, *Ad-Durar Al-Massun fi Uloum Al-Kitab Al-Maknun***,** Dar Al-Qalam, Damascus.
- Ibn Kathir, *Al-Bedayah Wa An-Nehayah***,** Dar Hajar: 1424AH / 2003AD.
- Ibn Kathir *As-Sirah An-Nabawiyah*, Dar al-Maarifa – Beirut.– Lebanon, 1395 AH - 1976 AD.
- Ibin Al-Arabi, *Ahkaam Al-Quran Li Ibn Arabi*, Dar Ihyaa At-Turath Al-Arabi, Beirut, 1st ed.
- Al-Ghazali**,** *Ihyaa Uloum Ad-Deen***,** Dar Al-Marifah, Beirut, no date.
- Al-Khattabi, *Gharib al-Hadith*, Dar Al-Fikr; Damascus: 1402 AH - 1982 AD.
- Ibn Omar Rr-Razi, *Mafateeh Al-Ghaib aw At-Tafseer Al-Kabeer***,** Dar Ihyaa At-Turath Al-Arabi, Beirut, 1st ed. , Beirut, 1420 AH.
- Ahmed Al-Dumyati, Al-Banaa, *IThaf Fudalaa Al-Bashar fi Al-Qiraat Al-Arbaat Ashar,* Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Lebanon.
- Ahmed Badr, *Usul Al-Bahth Al-Ilmi wa Manahigouh***,** Kuwaiti Publication Agency, 7th ed -1984 AD, Dar al-Qalam, Beirut.
- Al-Asqalani, *An-Nokat ala Saheeh Al-Bukhari*, followed by *At-Tajreed ala At-Tanqeeh***,** Islamic Library for Publishing and Distribution, Cairo, 1st ed 1426AH - 2005AD.

- Al-Asqalani *Al-Issabah fi Tamyeez As-Sahabah***,** Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah,1415AH.
- Al-Ashqalani, *FaTh Al-Bari, Sharh Sahih Al-Bukhari*, Dar Al-Marifah- Beirut, 1379 AH
- Al-Hassan bin Ahmed, Abu Ali, *Al-Hujah fi Al-Qiraat As-Sabaa* , and others Dar Al-Mamun li At-Turath, Damascus, Beirut,2nd ed, 1413AH-1993AD.
- Ibn Khalawiya, Abu Abdullah, *Al-Hujah fi Al-Qiraat As-Saba*, Dar Ash-Shorouk, Beirut, 4th ed, 1401AH.
- Jalal ed-Deen A-Mahali wa Jalal ed-Deen As-Suyuti, *Tafseer Al-Jalaleen*, Dar Al-Hadith, Cairo.no date.
- Ibn Manzoor, *Lisan Al-Arab*:, Dar Sader, Beirut.
- Ibn Al-Jazzari *An-Nashr fi Al-Qiraat Al-Ashr* Al MAtbaaa At-Tujariah Al-lbrah, no date.
- Az-Zahabi, *Marifat Al-Quraa Al-Kibar ala At-Tabaqat wa Al-Asaar*, Ar-Resalah, Beirut, 1404AH.
- Az-Zahabi, *Seyar Alaam An-Nubalaa***,** Ar-Risalah Corporation, 3rd ed, 1405 AH,1985 AD.
- Abbas Hassan, *An-Nahw Al-Wafi***,** Dar al-Maarif, 15th ed, no date.